في

دائرة العبودية والعبادة

***

تأليف الدكتور

سيف الإسلام حسين عبد الباري

***

مراجعة وتصحيح وتعليق

الأستاذ الدكتور السيد مصطفى السيد

***

إشراف

الشيخ الدكتور أسامة حامد مصيلحي

اسم الكتاب:

في دائرة العبودية والعبادة

المؤلف:

الدكتور سيف الإسلام حسين عبد الباري

مراجعة وتصحيح وتعليق:

الأستاذ الدكتور السيد مصطفى السيد

إشراف:

الشيخ الدكتور أسامة حامد مصيلحي

تصميم الغلاف: مصعب علي

تحذير:

جميع الحقوق محفوظة " للمؤلف " للنشر والتوزيع وغير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكتروني أو نقله بأية وسيلة أخرى أو تصويره أو تسجيله على أي نحو دون أخذ موافقة كتابية مُسبقة من المؤلف.

دار الأبرار المنصورة

ت: ٠٥٠٢٢٢٥٢٣

حقوق الطبع محفوظة

* * *

الطبعة الثانية
١٤٤٣هـ - ٢٠٢١ م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٠١٩ / ٢٦٦٢٩

* * *

الترقيم الدولى

I S B N 978-615-403-007-9

بسم الله الرحمن الرحيم

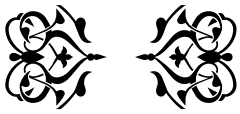

الناشر
دار الأبرار
المنصـــــــورة

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

***

{وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}

(الأعراف: ٦٥، هود: ٥٠)

{وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}

(الأعراف: ٧٣، هود: ٦١)

{وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}

(الأعراف: ٨٥، هود: ٨٤)

{لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}

(الأعراف: ٥٩، المؤمنون: ٢٣)

{وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}

(العنكبوت: ١٦)

{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}

(النحل: ٣٦)

{مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ}

(المائدة: ١١٧)

{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}

(الذاريات: ٥٦)

وفي الحديث الشريف

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺ قَالَ: بَيْنَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ ﷺ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا أَخِرَةُ الرَّحْلِ، فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ إِذَا فَعَلُوهُ» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ»

أخرجه الإمامان البخاري ومسلم وغيرهما.

بين يدي الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لقد وفقني الله بقراءة كتاب **"في دائرة العبودية والعبادة"** لفضيلة الدكتور / سيف الإسلام حفظه الله.

جزى الله المؤلف خير الجزاء على العمق اللغوي، في زمن ضاعت فيه اللغة العربية، والتأصيل الشرعي في معانٍ أساسية غابت عن أمتنا، مما أدى إلى اللاهوية لدى الكثيرين.

فقد تناول الكتاب معانٍ في صلب الدين، وإشارات عميقة لا يكتمل حب الإنسان لدينه إلا بها.

وحقيقة فإن الأمة تحتاج إلى الرجوع والتعامل مع الإسلام بمثل هذا العمق الذي تجلى بين ثنايا صفحات هذا الكتاب.

ومشكلة أمتنا أن معظم أبنائها دخلوا على العبادة بدون فهم، وهذا ما يجعل أبناء الأمة يتخبطون في متاهات الأفكار المنحرفة، والتشكيك في ثوابت الدين.

📖 التفريق بين العبادة والعبودية:

بدأ الكتاب بتوضيح الفرق بين العبادة والعبودية، وهذا أمر مهم لكل مسلم أن يعرف من يعبد، قبل أن يعبده، حتى يقدره حق قدره، لأن العبادة

بدون مفهوم العبودية يسهل على الإنسان معها أن يسقط في غيابات الشرك بدون أن يشعر.

فهناك علاقة بين حب الإنسان وبين ثمرة العبادة، وهذا الأمر وفق الله المؤلف في إبرازه، حيث إن الأمة لابد وأن تفهم دينها، حتى تتمسك بالله حق التمسك.

وهذا كان واضحًا جداً ومفهومًا، وضحه الكاتب ـ جزاه الله خيراً ـ في إبراز معنى العبودية، وأنها الطريق لكي تثمر العبادة بالخير، في قلوب من يقومون بها.

وقد ضرب مثالا بقوله تعالى: {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ}[1] وضح الكاتب أن القرب إلى الله بقدر قيمة السجود، فالسجود فعل بشري، بينما الاقتراب منزلة لا يملكها إلا الخالق سبحانه، ولهذا قال: ليس كل ساجد مقترب.

بمعنى أن السجود بالجسم، والتذلل والخضوع وتقدير الله حق قدره هو نابع من الفهم، أي العبودية لله سبحانه، فإذا ما تحقق هذا، اقترب بسجوده من معية الله تعالى، وما أعظمها من معية.

وطاف المؤلف على أمر هام وسؤال حير الكثيرين، لماذا ندعوا الله ولا يستجاب لنا؟

📖 "على قدر اليقين تكون الإجابة":

واتضح من خلال جولتي مع الموضوع أن الأمة مشتتة، لعدم أخذ بعض الوقت للتفكر، وتعلم دينها، بل ذهبت إلى العبادة دون سند صحيح من نصوص الشرع.

---

١ سورة العلق: ١٩.

مثلاً، حديث: "ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ"[1] كما ذكر الكاتب - أكرمه الله - الدعاء هنا وسيلة لمخاطبة الله، وباليقين في الإجابة يخرج الجانب المادي الملموس وهو العبادة، مع الجانب المعنوي وهو اليقين.

وكذلك أرشدنا الكاتب إلى أن شكل العبادة هو القالب الذي يظهر الامتثال والخضوع والذل لأمر الخالق سبحانه، وأن حقيقة العبادة تعتمد على الإخلاص واليقين في أن صاحب العبادة والآمر بها هو الذي يستحق أن يتعلق به القلب وليس العبادة في ذاتها.

ولهذا ظهر أمامنا الإجابة على السؤال لماذا لا يستجيب الله تعالى، ولم لم ينتفع كثير من المصلين بالصلاة، ولم يحصلوا منها على ثمرة الخير في حياتهم: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}[2].

عندما يكون هناك يقين مقرون بالعبادة يثمر الخير على الإنسان.

هذا الموضوع مهم جداً وقد أفدت بقراءته، وهو إضافة طيبة إلى المكتبة الإسلامية، وقد وجدت به الطريقة السهلة في استجابة الدعاء، فباليقين تسهل الاستجابة، وبالشعور وحب الله والتهيئة قبل الدعاء تكون استجابة الدعاء.

هذا الموضوع جيد، فكم نسمع من أناس أن الأمة كلها تدعو ولكن الله لا يستجيب، وقد وضح جلياً من خلال السير في الموضوع السر في عدم الاستجابة.

---

١ سنن الترمذي.

٢ سورة العنكبوت: ٤٥.

ثم انتقل الكاتب إلى موضوع هام نحتاج إليه جميعـًا هذه الأيام ونحن نعاني من ابتلاءات عدة حيث طاف في موضوع:

"الابتلاء نسائم الرحمة في ثناياه":

ولأن الله أنزل البلاء ليميز بين الناس: "ونبلوكم بالشر والخير فتنة".

حقيقة بعد إطلاعي وتصفحي لهذا الموضوع قلت الحمد لله على الابتلاء، وحقيقة شعرت من خلال قراءتي لهذا الموضوع أن البلاء رحمة، ويحمل للإنسان الخير ويمحص المؤمنين.

وفعلاً فإن قيمة الإيمان الحق هي التي تعين الإنسان على الامتثال لمراد الله تعالى حتى ولو غابت عنه الحكمة، التي تكمن يقينـًا في ثنايا مصابه.

إن الله تعالى يقيم الحجة على المؤمنين بالابتلاء والاختبار والامتحان، وكذلك أن البلاء لا ينزل إلا لحكمة، ومنها التمحيص والفرز، وتفاوت الدرجات، فالابتلاء يقع لرفع الدرجات ومحو السيئات، فالبلاء لا يقع إلا لحكمة، فليس المقصود التعذيب، بل لحكمة يعلمها الله تعالى، وكلها خير.

وكذلك العلاقة بين إدراك حكمة البلاء وتحمل الابتلاء، فكلما أدركنا وعلمنا أن الله عدل صبرنا على الابتلاء، لأننا نؤمن أن هناك حكمة من الله لتوجيهنا إلى الصراط المستقيم، وكذلك هناك علاقة بين تحمل البلاء ومكانة العبد يوم القيامة.

☜ **ووضح فضيلته نقطة هامة ألا وهي:**

ليس معنى الرضا وقبول الابتلاء عدم الأخذ بالأسباب بالطرق الشرعية لإزالته، بل على المبتلي أن يأخذ بالأسباب، مع الدعاء لله لإزالة الابتلاء.

ووضح أنه ليس معنى الدعاء لزوم رفع البلاء، فقد يكون البلاء خيراً، لا يخطر على قلب بشر، فكم من بلية حملت معها نسائم الرحمة، ما لو علمه الناس لطلبوها، وكذلك يمكن للابتلاء أن يكبح طغيان النفس، ويمنع من الانسياق وراء الأهواء، كما قد يكون سببا في منع مصائب أعظم.

وفهمت أن المصائب تقوِّي الإنسان فلو رفع الله البلاء بعد الدعاء مباشرة لتعطل مراد الله من البلاء، "فالبلاء على قدر الدين"، وكيف أن البلوى تكون سبباً في لجوء الإنسان إلى الله، ولو فَقِهَ المسلمون هذا المعنى لما ذهب كثير منهم عند البلاء إلى المخدرات وغيرها، بل لو فهموا الحكمة لصبروا على البلاء، ولاطمأنت قلوبهم أنه من عند الله.

فالبلاء سبب مهم لرجوع الإنسان عن تمرده، والتمسك بالشرع على الوجه الذي يرضاه الله سبحانه، وبخاصة عند العجز وانعدام الحيلة عن دفع البلاء، أو تجنبه.

ثم طاف بنا فضيلته بعلاقة الصبر على المصيبة وزوالها، وأنه ليس شرطا أن يرفع الله البلاء بمجرد الصبر، فلله في خلقه شئون، وكذلك أن ثمرة الخضوع بالعبودية تخفف من البلاء، وتجعل الإنسان أكثر تحملاً.

ثم ختم الكتاب بموضوع شيق رشيق لغةً وعمقا يتعلق بتربية الإنسان وكيف يدرك كل منا نعمة النوم.

📖 **"النوم"**:

وهذه إطلالة لطيفة لما فيها من طرح فلسفي علمي مربوط بالشرع، فحقيقة ما أروع لغته وانسيابيتها، حيث طاف بنا عن ماهية النوم، وكيف يأتي وعلاقته بالموت، والوقت، ولاحظت أن النوم نعمة، يغفل عنها

الكثيرون، فالحمد لله الذي رزقنا النوم، لنتقوى به على تحقيق مراده، من العبودية والعبادة الصحيحة.

☜ **وأخيراً:**

أشكر فضيلة الدكتور سيف لما أمتعنا به من هذا الكتاب الجميل وإنه لفائدة كبيرة حيث الطواف بين جمال اللغة العربية ممزوجة بمفاهيم شرعية غابت عن كثير من أبناء أمتنا، وأرى بحمد الله أن في نشر هذا الكتاب فائدة كبيرة وثروة للمكتبة الإسلامية.

وجزاكم الله خيراً

دكتور/ جمال الدين صلاح علوان.

مُقَدِّمَة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ﷺ.

أما بعد:

فإلى الذين آمنوا ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم، وإلى الحيارى والتائهين في خضم الحياة الهائج المائج، وإلى الذين ضلوا الطريق نمدهم بقارب النجاة.

وإلى المعاندين والخانعين على حد سواء، وإلى العلمانيين والملاحدة، وإلى الذين يريدون أن يحرروا أنفسهم من ربقة الشهوات، ويتطلعوا لتحرير وفك رقاب أخرى من أغلالها، نقدم هذا الكتاب.

إنه موضوع قديم حديث، قديم بقدم الإنسان، وحديث كلما ولد جيل إلى يوم القيامة وهو موضوع العبودية.

فقد اتفقت كلمة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ودعوتهم لأقوامهم على هذه القضية، قال الله تعالى على لسان كل رسول {أَنِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}[1]، لأنها قضية عقدية محورية ترتكز عليها عقيدة المسلم وتنبثق منها حياته وقضاياه وتعاملاته مع كل ما في هذا الوجود،

---

١ سورة المؤمنون: ٣٢.

وبمقدار صحة هذه القضية، وتحقق المسلم بهذه المرتبة يصح دينه وتصح عقيدته.

📖 **وقد يتساءل بعضنا:**

هل نحن في حاجة لإثارة هذه القضية من جديد، خاصة وأن علماءنا السابقين أفاضوا في الحديث عنها بمافيه الكفاية؟

وليس أبلغ فى الرد على هذا التساؤل من واقعنا المرير الذي تعيشه الأمة المسلمة، من انحطاط في الأخلاق، واجتراء على المقدسات، واستحلال للمحرمات، وتفشي المنكرات، وتبديد للطاقات فيما لا طائل وراءه، وانهيار للشباب ووقوعهم في براثن الإلحاد، والتنكر للدين، ذلك لأن الواقع هو نتاج أعمالنا، ومرآة أحوالنا، فلو صحت قضية العبودية عندنا ما كان هذاحالنا.

وفي كل مرة يراد فيها إعادة بناء هذه الأمة من جديد، وإيقاظها من رقدتها، لا معدى، ولا مفر عن قضية العبودية، وأى محاولات تتم لإعادة الدور الريادي لهذه الأمة بعيدا عن قضية العبودية فحتما ستبوء بالفشل، حيث إن المقدمة الضرورية لنهضة هذه الأمة هي تصحيح المفاهيم، وأول ما يستلزم تصحيحه من مفاهيم قضية العبودية، فمن لم يكن عبدا لله صار عبدا لسواه. كيف لا؟ وهي مدار فاتحة الكتاب التي نتلوها يوميا في الصلوات وهي نقطة الالتقاء بين العباد وربهم.

لقدخلق الله الإنسان، وفيه شق تسخيرى لا إرادة له فيه، ولا يخضع لسلطانه، حيث يعمل وهو نائم كما في أجهزة الجسم (الجهاز الدوري والتنفسي والعصبي والهرموني وخلافه)، وشق إرادي اختياري يخضع لإرادة الإنسان كفعل الطاعة والمعصية والخير والشر.

ولقد أمر الله الإنسان بأن يطوِّع الشق الإرادي ويخضعه لمراد الله فيصير بشقيه عبدا لله، ثم إذاحصل منه ذلك وجب عليه أن يتجه إلى الفئة الشاذة الشاردة، ليرجعها إلى حظيرة الإيمان، ويردها إلى بارئها، لتعلن عبوديتها لله رب العالمين طواعية واختيارا مصداقا لقول الله جل في علاه {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}[1].

فالكون كله طائع لله، لم يشذ إلا فئة ضئيلة، لا وزن لها بالقياس لمجموع الذرات والمجرات والأشجار والجبال والنجوم والدواب، التي تعلن عبوديتها لله رب العالمين.

إن هذا الكتاب الذي بين أيدينا يضيف جديدا في كل موضوع يطرحه، ليس في الأسلوب فحسب، ولكن تطرق إلى دقائق لم نتفطن إليها، ولم نتوقف

١ سورة الحج: ١٨.

عندها، كما أنه ليس من قبيل القصص والحكايات، بل يحتاج لعقل واع وقلب مقبل، لتلقى الحق وأخذ الأمر بجد، وإنه لبعث وإحياء لما اندرس من مفاهيم، وإنها منة الله يمن بها على من يشاء من عباده.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

دكتور/ السيد مصطفى السيد

***

التمهيد

"إن الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ"[1].

📖 **أما بعد**:

فإن حقيقة العبودية تعد من أهم الحقائق التي غفل عنها أكثر الخلق، حيث يقول رسول الله ﷺ مخبرا عن رب العزة جل جلاله أنه قال: "وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ"[2].

يقول **الإمام ابن عبد البر**: (خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ أَيْ سَالِمِينَ مِنْ آفَاتِ الْجَحْدِ وَالْإِنْكَارِ وَالْكُفْرِ، يَعْنِي وَاللهُ أَعْلَمُ مُوَحِّدِينَ لَا عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ فِي شَرِيعَتِهِ بَلْ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ فِي نَفْيِ الشِّرْكِ وَدَفْعِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَكُلِّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ)[3].

وتخصيص خليل الرحمن عليه السلام بالذكر لأن الكثير من الأنبياء كانوا من نسله عليه السلام، وكذلك لأنه ـ كما ذكر القرآن الكريم ـ هو الذي حطم الأصنام، وتعرض من أجل ذلك للإلقاء في النار، ولهذا

---

١ من خطبة الحاجة كما في سنن ابن ماجه.

٢ صحيح مسلم.

٣ الاستذكار لابن عبد البر.

ارتبط ذكره صلوات الله وسلامه عليه بتحطيم الأصنام، إعلاء للتوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له.

ويقول الإمام النووي: (فاجتالتهم، أَيْ اسْتَخَفُّوهُمْ فَذَهَبُوا بِهِمْ وَأَزَالُوهُمْ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ وَجَالُوا مَعَهُمْ فِي الْبَاطِلِ)[1].

وهكذا كان ابتلاء الناس بإقامة العبودية لله تعالى كما يحب، أنهم خُلقوا على الفطرة، وهي توحيد الله جل وعلا، وبالمقابل تعمل الشياطين على إبعادهم عن فطرتهم، ليصبحوا صيدا سهلا يتلاعبون به، ويوقعونه في غياهب الشرك ـ والعياذ بالله.

ويشير إلى هذا المعنى حديث رسول الله ﷺ، عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ»[2]، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: {فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ}[3].

وليس الخروج من دائرة الفطرة الحق إلى الانحراف والغواية قاصرا على أهل الشرك والضلال، بل أيضا التبست حقيقة العبودية على أهل التوحيد أنفسهم فذهبوا في شأن تحقيقها مذاهب شتى.

والذي نهدف إليه في هذه اللمحات المتفرقة في هذا الكتيب أن نلفت الأنظار إلى أن مفهوم العبودية ليس قاصرا على دعوى التعلق بالله

---

١ شرح النووي على صحيح مسلم.

٢ متفق عليه: صحيح البخاري رقم (٤٧٧٥)، صحيح مسلم رقم (٢٦٥٨).

٣ سورة الروم: من الآية ٣٠.

تعالى، بل لابد أن يكون هذا التعلق نابعا من إيمان وتصديق بعظمة الخالق سبحانه، وأن الكون وما فيه من سائر المخلوقات محكوم بقدرته سبحانه، مأمور بالخضوع والذل إقرارا بأنه وحده سبحانه المعبود بحق ولا معبود بحق سواه، وتبارك الخالق سبحانه إذ يقول: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}[1].

يبين **الإمام ابن كثير** المعنى المقصود بقوله: (يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبْرِيَائِهِ الَّذِي خَضَعَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَدَانَتْ لَهُ الْأَشْيَاءُ وَالْمَخْلُوقَاتُ بِأَسْرِهَا: جَمَادُهَا وَحَيَوَانَاتُهَا، وَمُكَلَّفُوهَا مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ، فَأَخْبَرَ أَنَّ كُلَّ مَا لَهُ ظل يتفيأ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ، أَيْ: بُكْرَةً وَعَشِيًّا، فَإِنَّهُ سَاجِدٌ بِظِلِّهِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَقَوْلُهُ: {وَهُمْ دَاخِرُونَ} أَيْ: صَاغِرُونَ)[2].

إن الإيمان والإذعان والخضوع لله تعالى بصدق وإخلاص يتطلب أن يدرك العبد عظمة الخالق سبحانه، وإحاطته بسائر مخلوقاته، وتمكنه منهم جميعا يقول عز من قائل: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[3].

---

١ سورة النحل: ٤٨ :٥٠.

٢ تفسير ابن كثير.

٣ سورة النحل: ٤٠.

ولما كان الإنسان هو الذي كرمه الله تعالى بأن تكون عبوديته لله تعالى عن رغبة واختيار، وليست قهرا واضطرارا، ولهذا كانت مكانة الطائعين في أعلى الدرجات الذين أحسنوا وأخلصوا لله تعالى بالعبودية كما يحب ويرضى سبحانه.

ولكن ترتب على تخيير الإنسان في الإقرار بالعبودية أن ضل أكثر الناس، فاستحقوا الإهانة والعذاب، {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}[1].

ولولا أن الله سبحانه قد أخر الحساب إلى يوم العرض عليه جل في علاه لما استطاع مخلوق قط أن يعصيه.

ولقد اغتر كثير ممن ينتسبون إلى الإسلام بأنهم قد أسلموا، وغفلوا عن أن هدايتهم إلى الإسلام نعمة من الله عليهم تستحق أن يسجدوا لله شكرا عليها وليس الغرور والتباهي {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[2].

إن آفة هذه الفئة أنها قد استشعرت الرضا بما تؤديه من عبادة وكأنها ضمنت من الله القبول، وتناست أن تحقيق مفهوم العبودية ليس قاصرا على أداء العبادات المختلفة من صلاة وصيام وزكاة وحج، حتى ولو اجتهدت في أدائها وتنافست في ذلك مع بعضها البعض، بل لابد تكون إقامة هذه

١ سورة الحج: ١٨.

٢ سورة الحجرات: ١٧.

العبادات نابعة من ذل حقيقي لله تعالى، وخضوع واستسلام، وليس هذا وحسب بل لابد أن يكون حالها بالنسبة لكل العبادات دائرا بين الخوف والرجاء، الخوف من عدم القبول والرجاء في رحمة الله تعالى، ففي الحديث عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»[1].

إن من أَلِف الاطمئنان والرضى عما يقوم به من عبادة يسهل عليه أن يزهو بنفسه في كل شيء حتى ولو لم يتسن له إظهار هذا الزهو في كل وقت وحين، ومن كان هذا حاله لن يلجأ إلى البحث عما يرضي الله تعالى على وجه صحيح، بل دائما ما يستحوذ عليه الرضا والاطمئنان، الذي يلهيه عن التأدب مع الله، بالحرص والتحري طمعا في تحقيق مفهوم العبودية الحق بالامتثال التام لنصوص الشرع كاملة، وما يقتضيه من الاستسلام والخضوع على الوجه الذي يرضيه سبحانه، والذي لا يمكن تحصيله إلا بالعلم الصحيح وليس بالكبر والزهو.

ولن يتحمل أحد ما يلقاه من مشقة وعناء في سبيل الوصول بالعلم إلى مرضاة الله تعالى إلا باليقين الصادق في وعد الله ووعيده، والإيمان الراسخ بأن الدنيا دار ابتلاء وليست دار حساب، وأن المرجع إلى الله تعالى {إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ}[2].

---

١ صحيح مسلم.

٢ سورة مريم: ٤٠.

إن حقيقة العبودية تأبى أن يكون للعبد أي حظ في مراجعة سيده، ومن هنا يصبح أي انحراف بالعبادة عن دائرة النصوص الشرعية ـ من قرآن وسنة ـ خروج عن مفهوم العبودية الحق، حتى وإن اتفقت صورة العبادة من حيث الشكل.

إن إخضاع العبادة لما ترتأيه العقول وتهواه الأنفس هو إلغاء لمفهوم العبودية بالكلية، لأنه متى تحررت النفس من قيد الالتزام والرضوخ والإذعان فإنها تصبح حرة، ومعنى الحرية في العبادة هو عدم الرضى بالتسخير بالعبودية للخالق جل في علاه، وعلى هذا لا تغني صلاة ولا غيرها ما لم تكن ثمرتها محققة لمفهوم العبودية الصحيح، ففي الحديث: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ»[1].

وفي هذا الكتيب نستعين بالله تعالى طامعين في تيسيره وتوفيقه أن نقرب ـ قدر المستطاع ـ مفهوم العبودية الحق لله رب العالمين، والذي لا يتوقف على أداء العبادة بل يمتد ليشمل كل مناحي الحياة امتثالا لقوله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[2].

وقد اقتطفنا من ذلك بعض الثمرات المتنوعة دون أن نقصد الإحاطة ولا الحصر، فأشرنا إلى مفهوم العبودية والعبادة، وما يقتضيه من يقين بموعود الله تعالى، كما لفتنا النظر إلى أن الابتلاء بكل صوره هو أيضا باب من أبواب تحقيق العبودية الحق لله رب العالمين، إذا ما استقر في وجدان العبد أن كل ما يصيبه إنما هو مراد الله تعالى لحكمة يعلمها جل في

---

١ صحيح مسلم.

٢ سورة الأنعام: ١٦٢.

علاه، حتى وإن غابت عنا أو لم ندركها على وجه الكمال، فإنها لن تكون إلا خيرا، ولن ينال خيرها إلا من اطمأن إلى صدق ما أخبر الشرع عنه.

وليس الرضا بالابتلاء مانعا من الأخذ بالأسباب على الوجه الذي أمر به الخالق سبحانه، بل إن الأخذ بالأسباب من تمام تحقيق العبودية لله رب العالمين.

وحديثنا عن آية من آيات الله في الحياة ونعمة كبرى من نعمه على عباده ألا وهي نعمة النوم، نقصد من الحديث عنها إلى التنبيه إلى أن كل ما يدور في حياة الناس مما كتبه الله هو آية ونعمة، التفكر فيها على وجه صحيح يقود أولى العقول والألباب إلى المسارعة إلى دائرة العبودية الحق لله رب العالمين، بلهفة واشتياق، ولله الحمد والمنة على ما أنعم وهدى وأعطى.

المؤلف

نظرات حول مفهوم العبودية والعبادة

- معنى العبودية .... مفهوم العبودية عند أهل الطرف والسلطان..
- العبودية والعقيدة..
- اللّه ومفهوم العبودية..
- مفهوم العبادة..
- العبادة حق للّه وحده..
- المشقة والتيسير في العبادة..
- ثمرة العبادة الحق..

نظرات حول مفهوم العبودية والعبادة

توقفت طويلا أمام هذا العنوان لأحسم أمري، بأي المفهومين أبدأ، العبودية أم العبادة، وكلما ترجح لدي واحد منهما، وجدت الأخر يضاهيه رجحانا، ولكل منهما وجه يترجح به.

ومما لا شك فيه أن كلا من المفهومين يرتبطان ارتباط الجسد بالروح، من جهة أنه ما من عبودية إلا وتصحبها عبادة، وكذلك ما من عبادة إلا وهي مترتبة على العبودية، فالعبودية هي الأصل، والعبادة تابعة لها، وإن كانت هي الأظهر والأشهر من جهة الوجود، والتنفيذ.

كذلك يغفل كثير من الناس عن مفهوم العبودية، وإن كانوا يقومون بطقوس العبادة بصورة أو بأخرى، فمفهوم العبادة أكثر حضورا في أذهان الناس من مفهوم العبودية، ولكن مع هذا لعل الأصل وهو العبودية أولى بالتقديم.

ولأن الحاجة تزداد إلى بعث مفهوم العبودية في النفوس على وجهه الصحيح في ظل حركات التغريب المتوالية التي تجاهد من أجل طمس معالم العقيدة الصحيحة، وبالتالي ضياع مفهوم العبودية الحق، والذي يترتب على ضياعه فقدان معالم الدين الإسلامي، الذي ارتضاه الخالق جل في علاه ليكون خاتم الرسالات الكتابية، ونعوذ بالله مما يكيد له الحاقدون.

ومن أجل هذا الهدف، أي تحقيق مفهوم العبودية على الوجه الصحيح، لابد أن نتعرف على معنى العبودية وما يترتب عليه، وكيف تعامل معه

الخلق على مر العصور، ثم نتناول بعده الأثر المترتب عليه ألا وهو العبادة، وكيف يمكن إقامتها على الوجه الذي يرضي الخالق سبحانه.

معنى العبودية:

هو الخضوع والذل والانقياد، وكل من سلبت حريته فهو عبد، ذليل خاضع منقاد، لا يملك من أمر نفسه شيئا، بل يتصرف فيه غيره كيف يشاء.

وبهذا فمفهوم العبودية كما يتعلق بالذل والخضوع والانقياد يتعلق بوجود القوة والقهر والجبروت، والتي لا يمكن أن يكون للعبودية وجود إلا بوجودها، فبالقوة استعبد الناس بعضهم بعضا، {وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا}[1].

وقد عرفت البشرية العبودية والاستعباد منذ عصورها الأولى، حيث كان القوي يستعبد الضعيف ويسترقه، ويكون العبيد "الرقيق" من جملة المنقولات، من مال ومتاع وغيره، فهو يباع ويشترى كالبهيمة، أو سائر الأعراض التي يمتلكها الإنسان.

والغريب أن مرحلة الرق والعبودية كانت أفضل من مراحل سابقة عليها، حيث كان يقتل الأسير والمغلوب، بدلا من تحمل تبعة حياته من مأكل ومأوى وخلافه.

---

١ سورة نوح: ٧.

ولكن في مرحلة متقدمة رأوا أن يسترقوا الأسرى بدلا من قتلهم، واستعبدوهم لأعمال السخرة، من قضاء الحوائج والقيام بكل أنواع الخدمة اللازمة للأسياد.

وكان حال العبد يتوقف على حال مالكه والبيئة التي يعيش فيها، فإن كانت تتحلى ببعض الأخلاق الإنسانية تمتع العبد بشيء من الاهتمام، لا يزيد كثيرا عما يلقاه أي حيوان يملكه صاحبه.

وأما في غياب الأخلاق الأساسية فالعبد عرضة لأن يكون هدفا لكل ألوان التعذيب والتحقير والإهانة، بل حتى حياته لا تسوي عند مالكه أي قيمة كإنسان، بل دائما تقدر بما تعود به من نفع ومال، فلو كان موته في ساحة المصارعة ـ مثلا ـ يعود على مالكه بنفع أكبر فموته وعذابه في القتال متعة يتسابق إليها سائر الملاك.

فقد كانت حلبة المصارعة بين العبيد تقام لمتعة الأسياد والتي تنتهي بموت أحد المتصارعين من العبيد، فلم يكن أبدا ينظر إلى العبد على أنه إنسان.

ومع اتساع دائرة الاستعباد والظلم والطغيان ذهب البعض إلى أن مفهوم الألوهية نشأ بسبب الحاجة إلى وضع حد لهذا التكبر والإجرام.

فقد كان العبيد المستضعفين في حاجة إلى قوة تتصدى لهؤلاء الطغاة المتجبرين القساة الغلاظ، ولم يجدوا هذه القوة إلا في قوة غيبية أودعوا فيها كل آمالهم في النجاة مما يلقونه من هوان وعذاب، نظرا لتعذر وجود هذه القوة بين الأحرار أو السادة، والذين تسلطت عليهم شهوة التجبر والاستعلاء، فلم يرجى من ورائهم أي خير لهؤلاء العبيد الضعفاء.

ولا يمنع هذا أنه قد وجد بعض الأقوياء يتحلون بالشفقة والأخلاق، من ذوي الجاه والسلطان، وكذلك بعض البيئات، وإن كانت قليلة، يذهب هؤلاء في معاملة الرقيق إلى مرتبة تقرب من مرتبة معاملة الأحرار، وفي مثل هذه البيئات نشأت مفاهيم الخير والرحمة والإحسان، وأقاموا لكل هذه المعانى آلهة ظنوا أنها هي التي توجههم وتدفعهم إلى الأخلاق الطيبة"[1].

ولكن من جانب آخر نجد أن كثيرا من العبيد قد نسوا أنهم بشر بالفعل، فاستسلموا لظلم الرق والاستعباد دون أي ضيق أو اعتراض، بل ذهبوا إلى أبعد من هذا فتنافسوا في الاستمتاع بالعبودية، من حيث التنافس في أداء الخدمة والخنوع التام والذل بل والحب لأسيادهم، ورضوا من العيش بأقل ما يلقى إليهم.

وليس معنى هذا تسويغ الذل والعبودية، لأن أمثال هؤلاء العبيد الذين نسوا إنسانيتهم هم في الحقيقة ضحايا لما لاقوه من تنكيل وتعذيب في ظل غياب أي أمل في تغيير هذا الواقع المهين، حتى ترسخ في أنفسهم رويدا رويدا أن هذه هي حياتهم ولا شيء سواها، فما كان منهم إلا الانصياع لها والقيام بمتطلباتها على الوجه الذي يوفر لهم بعضا من الراحة والهدوء، وهكذا عاشوا حياتهم حتى الممات.

ولكن لأن هذا الشعور يتعارض مع فطرة الخلق، التي اصطبغت بها النفس البشرية بمعاني الحرية، لم تكن سمة الخنوع والذل دائمة، بل ثار

١ فمهما طغى الشر، وعم الآفاق لن تعدم قليلا من أصحاب المروءات، وكأن وجودهم آية تدل على أن الفطرة لم تطمس لدي الناس بالكلية، ليظل هذا الخيط موصولا يشير إلى وجود خالق مدبر للكون، حتى وإن كان هذا الخيط واهيا ضعيفا، لكنه موجود.

العبيد مرات ومرات لينالوا حريتهم، وقتل في سبيل ذلك منهم أعداد لا حصر لها.

ويتضح من ذلك أن مفهوم العبودية كان سجية وعادة عند الفريق المضطهد المعذب، وسواء توجه إلى قوة غيبية، أم إلى قوة مادية مهما كانت، فهو يلجأ إلى ذلك تحت تأثير الذل والقهر والهوان.

فإذا كان هذا هو حال العبد مع سيده الذي يساويه في البشرية، غير أنه امتلك من القوة ما لا يملكه هو، فلأن يكون خضوعه وذله وانقياده لهذا الإله الذي يتوجه إليه ليخلصه مما هو فيه أكبر، وبخاصة أنه ناشيء عن رغبة واختيار، لا عن قهر واضطرار كما في حاله مع من استعبده ظلما واستكبارا.

مفهوم العبودية عند أهل الترف والسلطان:

أما بالنسبة لأصحاب القوة والسطوة والجاه فلم يغب عنهم مفهوم العبودية، وإن كان له وجه آخر غير الذي عرفه العبيد، وإن كان لا ينفصل عنه في معناه.

فهؤلاء عندما يتحلون بالرأفة والرحمة لا يفعلون هذا إلا وقد استقر في قلوبهم وعقولهم ـ على وجه ما ـ وجود الإله، أو القوة الغالبة التي لا يملكون دفعها، مهما كانت قوتهم وسلطانهم، ولهذا رضخوا لهذه القوة الغيبية بتقديم القرابين، والتحلي بالأخلاق، طمعا في رضى هذه القوة الغالبة، وحتى لا تسلط عليهم ما لا طاقة لهم به، أو تسلبهم ما ينعمون به من ملذات الدنيا، ولعل أكثر هؤلاء هم الذين اعتقدوا في البعث بعد الممات.

ومهما كان قدر الرضوخ والإذعان فهو وصف لازم للعبودية لا يفارقه أو ينفك عنه، وكذلك ما يقومون به من طقوس أو يقدمونه من قرابين، ما هو إلا أثر من أثار العبودية وليس له أي تفسير أو معنى سوى هذا المفهوم، وهو العبودية.

وساعد على تزكية هذا الشعور، ما كان يراه هؤلاء من الأحلام والرؤى والخيالات، والتي لا تخضع للحقائق الملموسة التي يعاينها الإنسان، ووجهت عقول البعض منهم إلى وجود القوة الغيبية، وبخاصة ما كانت تحمله هذه الأحلام والرؤى من صور لأناس سبق أن عاشوا بينهم ثم ماتوا،

فكيف يتراءون لهم في الأحلام والخيالات، بل ويتبادلون معهم الأحاديث أحيانا، ومنها ما قد يصدق على واقع لم يحدث بعد، فأرجعوا كل هذا إلى وجود حياة أخرى لا يعلمون شيئا عنها، ولكنها موجودة، ووجودها يساعد على وجود الإله والذي لا تخلو من الشعور به نفس بشرية، وإن اختلف هذا الشعور كثيرا، ما بين مؤمن به، ومكابر لا يثق في شيء من هذا.

إن الأحلام والرؤى والخيالات يؤمن الناس بوجودها ـ عن يقين ـ في كل العصور الحديثة، مما يؤكد أنها تتعلق بالبشريه ذاتها، وليس بالعلوم والأزمنة، فهي مصاحبة للإنسان منذ عصوره الأولى بغير شك أو ريب، وبالتالي فقد كانت بابا من الأبواب التي فتحت لعقول أهل الفهم والإلهام القول بالحياة الأخرى، والتي ترتبط غالبا بوجود إله، والذي يستحق أن يعبدوه طمعا في نعيم الحياة الأخرى، أو خوفا من عقابه، أو أي معنى يقرب من هذه المعاني التي تمثل أهم أوصاف العبودية.

ولولا هذا الاعتقاد بوجود الإله لكانت رحمتهم ورأفتهم وتخليهم عن بعض المتع المتاحة لهم، نوعا من الحمق والجهالة، لأنه لو كانت الحياة الدنيا بصورتها الملموسة المدركة هي كل ما يتعلق بالإنسان، ولا شيء بعدها، لكان العاقل هو الذي يغترف من ملذاتها بقدر ما يستطيع، ولكن مقاومة هذه الشهوة في ذاتها تؤكد أن الباعث النفسي إلى هذه الفضائل لابد وأن يكون له مقابل وجزاء لمن يقوم به، لأن مقاومة الشهوة عناء وتعب، وتمثل مظهرا من مظاهر العبودية، ولتقريب المعنى نقول على سبيل المثال: شهوة التحكم في الآخرين، والتي يترتب عليها الاستعلاء عليهم وظلمهم، مقاومة هذه الشهوة ـ وبخاصة عند القوي ـ ليست بالأمر الهين

عند من تمرس عليه واعتاده، ومع هذا فإن هذا القوي يقف أمام من هو أقوى منه ، أو أمام ذي السلطان في خضوع وانكسار، مما يعني أن هذه الشهوة تردعها القوة الغالبة والسلطان المتمكن.

وهكذا نستطيع أن نقول إن أصحاب الخلق والفضيلة الذين يقاومون في أنفسهم مثل هذه الشهوات، دون وجود قوة مادية تردعهم عن ذلك، إنما أمكنهم مقاومة هذه الشهوات بسبب ما هو مركوز في أنفسهم من وجود بعث وحساب، وسواء كان هذا مدركا على وجه صحيح واضح أو مستقر في النفس دون إدراك لحقيقته، فمما لا شك فيه أن هذه العقيدة لم تنبع من فراغ، ولم تنشأ في النفس بسبب الرسل، بل إن الرسل هم الذين أخرجوها من حيز اللاوعي والإدراك إلى حيز الحس والإدراك، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ}[1]، فهذه الآية وغيرها من النصوص الشرعية تؤكد أن التسليم بوجود الخالق القوي القادر الذي يحاسب الناس يوم الحساب على أعمالهم مستقر في النفس، ولولا انحراف الفطر البشرية عن استقامتها لأقرت لله تعالى بالعبودية حتى ولو لم ترسل الرسل.

ومن أجل ذلك فإن أصحاب القوة والجاه والسلطان الذين يقاومون شهواتهم في ظلم الناس، أو استحلال ما ليس لهم، لا يفعلون هذا خوفا أو إيعازا من ذي قوة آخر، فالأقوياء كثر، وكذا ذوي السلطان، وعند تعارض الرغبات والشهوات كثيرا ما تنشأ الحروب بين هؤلاء الأقوياء، ولا يذهب

١ سورة الأعراف: ١٧٢.

المهزوم إلى تأليه المنتصر، بحيث يمتنع بعد ذلك عن ممارسة شهوته إن تمكن من ممارستها، إلا بصورة فردية، ولا تخلو أيضا من رمزية وجود الإله، حتى وإن كان على وجه ضال، كأن يرجع ـ مثلا ـ سبب انتصار المنتصر إلى عون من قوي غيبي غير مدرك ساعده على النصر، أو بالمقابل أيضا يرجع سبب هزيمته إلى تخلى هذه القوى الغيبية عنه فدارت عليه الدوائر.

إن كل هذه المعاني لم تخلو منها حياة البشر على مر عصورهم، مما يؤكد أن أصل وجود الإله الأعظم مطبوع في النفس، ولكن ضل الناس عنه بسبب نجاح الشياطين في إغوائهم والسيطرة عليهم.

ومع هذا فالأعم الغالب أن المنتصر والمهزوم يدركان أن الغلبة أو الهزيمة إنما هي بسبب تفاوت القوى بين المتماثلين، فليس المنتصر اليوم بمستحق لوصف الألوهية، لأنه غالبا سيهزم في منظور قريب، أو يدركه الضعف والوهن، بما يؤكد للفريق الآخر الذي سبقت هزيمته عدم استحقاق من سبق له النصر أن يوصف بالألوهية.

ومن هنا كان لابد من قوة لا يمكن قهرها بهذه العوامل البشرية، يتوجهون إليها طلبا لتحقيق الرغبات، يدينون لها بنوع من الولاء ظنا بأنها تفوق كل قوة مدركة بالنسبة لهم، هذه القوة هي التي تكافئهم وتعوضهم عما يفوتهم من منفعة، فنشأ لديهم اعتقاد وجود الإله الأعظم، وإن اختلفوا في حقيقته اختلافا كثيرا، ومع هذا لم يختلفوا في استحقاق هذا الإله لأن يدينوا له بالعبودية، بصورة من الصور.

وفي المقابل نجد بعض الحكام الذين أعماهم الكبر والسلطان قد استباحوا لأنفسهم وصف الألوهية، {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}[1]، وما ذلك إلا لينزلوا على أنفسهم خصائص وأوصاف ليست في مقدورهم، يرغبون في ظلها في الاستحواذ على عقول الناس وقلوبهم، ليزدادوا ذلا لهم وخضوعا وانقيادا، لأنه كلما ازداد الخوف أو التعظيم والمهابة كلما ازداد الاستسلام والإذعان والانقياد.

ونخلص من هذه المعاني أن الحاجة إلى وجود الإله والإذعان له بالعبودية حقيقة في الكون وحاجة في النفس، فهي ليست متوقفة على وجود طبقة العبيد، ولكنها متعلقة بكل طبقات البشر، وتختلف مفاهيم العبودية باختلاف حقيقة العقيدة التي تمثل هذا الإله.

١ سورة القصص: ٣٨.

العبودية والعقيدة:

مفهوم العبودية مستخلص من أصول العقيدة، ولهذا فهو أخص منها، فالعبودية ماهي إلا جزء من جوهر العقيدة، ولكنه الجزء الذي يترتب على صحته صحة باقي الأجزاء.

ولقد حظيت العقيدة الخالصة الصحيحة بدراسات مفصلة لا حصر لها، قد يصعب في الكثير منها استخلاص مفهوم العبودية على الوجه الصحيح، مما أوجب تسليط الضوء عليه منفردا، في محاولة لإخراجه من دائرة اللاوعي الإنساني إلى دائرة الحضور والظهور.

إن كثيرا من الأقوال والأفعال بل والأشياء تمر بالإنسان في حياته دون أن يتأثر بها تأثرا ملموسا، وقد لا يفطن إليها أحيانا، ولكن هذا لا يعني أن العقل الباطن أو اللاوعي لم يتأثر بها، بل على العكس، لعل ما يلتقط منها ويتركز فيه يكون أكثر بكثير مما يظن صاحبه، تماما كما يعرض للطفل في بيئته التي ينشأ بها أحداث لا يدرك معظمها حق الإدراك، ثم تراه بعد ذلك يسترجع ما لم يكن يخطر على البال أنه قد فطن إليه، بحال من الأحوال.

وهكذا يتأثر الناس بالعقائد المختلفة، والتي تشيع آثارها في كل البيئة المحيطة، فيتأثر بها آحاد الناس، وقد يكون ممن لا يعبأ بهذه العقيدة، بصورة أو أخرى.

ولهذا لا يمكن أن تسلم عقيدة إنسان من أن تشوبها شائبة إلا إذا تعهدها على وجه الدوام بالمتابعة والاهتمام، ولهذا نجد أنه ما من عقيدة من

العقائد إلا ولها طقوس تؤدي، الغرض منها بقاء العقيدة نابضة في قلوب أصحابها، وكلما ضعف شعور الناس بعقيدتهم، ضعف معه أو انعدم ما يقومون به من طقوس وعبادات، والسبب هو غياب مفهوم العبودية، الذي يتلاشى بالكلية، عندما تنمحي معالم العقيدة في النفس.

وبالمقابل كلما كانت العقيدة ظاهرة جلية في نفوس أصحابها، كلما انعكس ذلك بصورة مباشرة على مفهوم العبودية الصحيح، الذي تستقيم به العبادة وتكون أهلا للقبول.

فالعبادة التي تؤدى في غياب المفهوم الصحيح للعبودية ثمرتها ضئيلة، وقد تكون معدومة الثمرة بالكلية، في أحيان كثيرة.

ولما كانت عبادة الله تعالى حق العبادة هي الغاية من خلق الإنسان، أصبح من الضروري أن تكون القاعدة التي ترتكز عليها العبادة، أي قاعدة العبودية صلبة متينة، حتى تصح العبادة ويتحقق المراد منها.

والعبادة قد تتفق ـ بدرجة ما ـ أو تختلف من عقيدة إلى أخرى، فليس مستغربا أن يتشابه الصيام مثلا في أكثر من عقيدة، بل قد يتفق ويتطابق بوجه تام من جهة الظاهر، ولكنه لا يكون على الرغم من ذلك صحيحا أو مقبولا، مالم ينبع من مفهوم العبودية الصحيح أو العقيدة الصحيحة، كما بينا، وإن كنا نخص العبودية بالذكر لارتباطها الوثيق بالعبادة أكثر من باقي أجزاء العقيدة، فكأنها الصلة المباشرة بين العقيدة والعبادة.

فإن مفهوم العبودية هو جوهر كل عقيدة، ولأن العقيدة التي ارتضاها الخالق سبحانه لعباده واحدة، وهي عقيدة التوحيد وعدم الشرك به سبحانه،

قال تعالى: {وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}[1]، أخذ الله عليها ميثاق بني آدم، في عالم الذر، ثم جاء بها كل رسول.

ولولا عقيدة التوحيد وعدم الشرك لما كانت هناك حاجة إلى الرسل، ولتُرك الناس وما يشركون، فلا يوجد معبود غير الخالق سبحانه يستحق أن يعبد دون سواه، فلولا عقيدة التوحيد لاستوت العقائد جميعا لأنها تصبح كلها من صنع البشر.

ولكن يأبى الخالق سبحانه أن ينازعه مخلوق ملكه وسلطانه، ولهذا أخذ الميثاق الذي أخذ على بني آدم، ثم تعهدهم بإرسال الرسل {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}[2]، فهذه طبيعة البشر، المتمثلة في الضعف والنسيان والجدل الكثير، والذي ساقهم إلى هاوية العقائد الفاسدة، التي زينها لهم الشيطان، واستعبدهم بها منذ عصور الإنسان الأولى، حتى أصبح اشتراك العقائد مع بعضها سمة من سمات البشر، في كل زمان ومكان، فلم تصفُ لهم عقيدة صحيحة قط، إلا ما جاء به الرسل، وحرص عليها الأتباع.

وفيما عدا هذا اختلطت عقائد الناس مع بقايا العقائد الصحيحة التي جاء بها الرسل وما ابتدعه الكهان والسحرة وغيرهم من عقائد، ألّهوا فيها الأسلاف والطير والحيوان، والكواكب وغير ذلك مما لا يكاد يحصى.

---

١ سورة النساء: ٣٦.

٢ سورة المؤمنون: ٤٤.

ونظرا لأن العقيدة تمثل الجامع والرابط بين أجناس البشر المختلفة، ليكون لهم كيان واحد وهدف واحد، تفاوتت مفاهيم العبودية والعبادة، بقدر ما يحقق أهداف صانعي العقيدة أو القائمين عليها.

فتمثل مفهوم العبودية في مظاهر الطاعة والولاء ليس غير، والقيام ببعض القرابين، التي تعود لهؤلاء الكهنة والسدنة وغيرهم، ليزدادوا قوة وقدرة على التحكم في نفوس الناس وخداعهم.

ولهذا لم ترتبط هذه العقائد، أو معظمها، بالخلق والإيجاد، أو الإحياء والإماتة، والبعث والعقاب، وغير ذلك من لوازم العقيدة الصحيحة.

ومما لا شك فيه أن الفارق سيكون كبيرا والبون يكون شاسعا بين من أقر بالعبودية للإله الحق، الله وحده لا شريك له، وبين من أقر بالعبودية لغيره من الآلهة.

إن هؤلاء الذين عبدوا الأبقار، وعبدوا الإنسان وعبدوا أعضاء الإنسان، لا يمكن أن يستقر في قلوبهم وأنفسهم مفهوم صحيح للعبودية الحق، بل يتناسب مفهوم العبودية في قلوبهم مع تصور قدر الإله وسلطانه وقوته، سواء أكان هذا التصور مدركا أم غير مدرك، فإنه يقينا موجود في ثنايا العقل، بصورة أو أخرى، ويؤكد هذه الحقيقة قول المولى تبارك وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا

تُنْظِرُونِ}[1]، والمعنى أن عجز هذه الآلهة المصنوعة ملموس محسوس، حتى وإن كابر صانعوها وجعلوها آلهة.

وإذا كان هذا المعنى واضحا تماما لمن عبد الأصنام، فإنه لا يقل وضوحا لمن عبدوا غيرها من الأحياء، فإن كل حي يدركه الموت لا محالة، وتراه الأعين وتدركه العقول، وسواء أكانت هذه المعبودات عبدت كرمز لشيء آخر، أو عبدت لذاتها، فإن حقيقة الألوهية غائبة عن النفس والعقل والقلب، لا محالة، وكل مظاهر العبودية لتلك الآلهة لا يعود منها على نفس صاحبها وقلبه ثمرة حقيقية، والتي يترتب عليها حقيقة التوجه إلى هذا الإله، وطلب العون منه، أو تقديم الطاعة له.

إن التوجه بالدعاء إلى هذه الآلهة ما هو إلا نوع من العبث، يدرك فاعله شيئا من عبثه بدرجة أو أخرى، ولن يصل أبدا إلى درجة الطمأنينة والسكينة الحقيقية، التي تتنزل فقط من الخالق سبحانه، فإنه لا يملكها إلا العليم بالقلوب وخالقها وباريها جل في علاه، {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}[2].

فالإقرار بالعبودية الحق لله رب العالمين هي التي يتوصل بها إلى هذه المنحة الربانية ألا وهي اطمئنان القلب وسكينة النفس.

إن اطمئنان القلب وسكينة النفس لا يقاس بحالة السعة والدعة والراحة التي يمكن أن يحياها الإنسان، بل قد يكون قلب من يكد ويتعب في الحياة أكثر اطمئنانا، ونفسه أكثر سكينة من هؤلاء.

---

١ سورة الأعراف: ١٩٤، ١٩٥.

٢ سورة الرعد: ٢٨.

ولهذا فإن أثر الطمأنينة يكون أكثر ظهورا عند الشدة والعناء، لأنها الحالة التي يخاف عندها الناس ويضربهم القلق والاضطراب، مهما كانت حالة السعة والترف، حتى وإن اختلفت مظاهر القلق وأسبابه، فهو قلق يفقد الإنسان الطمأنينة وينزع عنه الراحة والسكينة.

إن هذه المشاعر والأحاسيس القلبية والنفسية ليست أمورا مادية يمكن وزنها بموازين البشر، ولهذا لا يلمس حقيقتها إلا من صحت عقيدته، وأقر بالعبودية للإله الحق سبحانه.

إن المؤمن الحق الذي اطمأن قلبه وسكنت نفسه في معية الله تعالى، بالذكر والعبادة، لا تغريه ماديات الدنيا لو وضعت بين يديه على أن يُحرم هذه الطمأنينة والسكينة التي ينزلها الله عليه، رحمة منه سبحانه، وإحسانا، إنها ليست صناعة بشرية، وإن الوصول إليها يتحقق بالطاعة والعبادة على وجهها الصحيح، كما في قوله تعالى: {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ}[1]، فالسجود فعل بشري، بينما الاقتراب منزلة لا يملكها إلا الخالق سبحانه، فلا يقترب منه إلا أهل طاعته ومحبته، ولهذا فليس كل ساجد مقترب.

ويقرب هذا المعنى ما ورد في الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ،

---

١ سورة العلق: ١٩.

وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ"[1].

ويالها من مرتبة ويالها من مكانة تلك التي يحظى فيها العبد بمحبة الله تعالى، فيغنيه عن كل ما سواه.

إن كل الآلهة التي توجه إليها الناس بالعبودية من دون الله تعالى لم يجرؤ صانعوها أنه يصفوها بالشمول والإحاطة التي تحقق اطمئنان العابدين بمعيتها لهم في كل أحوالهم، ومن أجل هذا قد تنقطع صلتهم بهذه الآلهة بالكلية إذا تركوا المعابد التي أقامها كهنتها وسدنتها، بينما الإقرار بالعبودية للإله الأعظم الخالق جل جلاله، فمعيته تامة محيطة شاملة، لا يحول بينها حائل، ولا يحجبها حجاب، كما في قوله سبحانه: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}[2].

وهكذا نقترب كثيرا من المفهوم الصحيح للعبودية، الذي يتعلق بالخالق وحده سبحانه، ويطمئن إليه، حتى وإن لم يدرك شيئا عن ذاته سبحانه، فيكفيه الإيمان به والإقرار بالعبودية له جل في علاه، ويكفيه ما يجده من ثمرة العبادة المتمثلة في الرضى والطمأنية، وكلما ازداد من ربه تقربا كلما كانت حلاوة العبادة أكثر ظهورا، حتى ليكاد يستشعرها، كما لو كان يتذوقها تذوقا ماديا حقيقيا.

إنها حالة لا يدركها إلا من عاشها بالفعل، ولا مجال لاستشعارها إلا بهذا الطريق وحده، طريق العبودية الحق، والذي تهون في ظله كل متاعب

---

١ صحيح البخاري.

٢ سورة البقرة: ١٨٦.

الحياة، أو تكاليف العبادة حتى تصبح راحة ونعيما يتنافس في الوصول إليه المتنافسون، مصداقا لقوله ﷺ: "يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا"، وهكذا سائر العبادات.

وإذا كان هذا حال من عبد الإله الحق سبحانه، فإن العبادة عند أهل العقائد الفاسدة طقوس يغلب عليها السهولة واليسر، تفي بالغرض المطلوب منها، تأليفا لقلوب الناس، وجمعا لشتاتهم، ومما لا شك فيه أن قلة هذه العبادات وسهولة أدائها مطلوب حتى لا ينصرف الناس عن العبادة أو معظمهم.

ومع خفة الأعباء وقلة تكاليف العبادة، لم يتوقف عامة الناس كثيرا أمام خطأ هذه العقائد أو صوابها، بل عاشوا تحت مظلتها كيفما اتفق لهم العيش، مع أنها لو كانت نابعة من المفهوم الحق للعبودية لكان لها في قلوبهم ما يحفزهم على التسابق إليها راغبين مختارين محبين طائعين، ولكن أنى يكون لهم هذا وقد توجهوا بالعبودية إلى آلهة زائفة ما أنزل الله بها من سلطان.

وهكذا كان حال الناس على مدى أزمان متطاولة مما جعل التخلص من رواسب العقائد الفاسدة ليس سهلا ولا ميسورا، بل لابد من يقظة وفهم وتنبه لعوامل الإشتراك والاختلاط بين الصحيح والفاسد، ولا يمكن أن ينجح هذا إلا إذا تأصلت المفاهيم الصحيحة للعبودية والعبادة في عقول الناس وأذهانهم، على وجه يعصمهم من أي خلل أو سوء الفهم.

اللّه ومفهوم العبودية:

مع تعدد الآلهة التي اتخذها البشر، تعددت مفاهيم العبودية بقدر ما يستقر في وجدان كل جماعة من حقيقة الإله الذي تعبده، وعلى قدر استحضار عظمة هذا الإله في النفس، بقدر ما يكون حبه، وبقدر ما تدين له النفس بالولاء والخضوع والانقياد، وتحقق مفهوم العبودية الذي يليق بهذا الإله.

ولتقريب الصورة ـ وتنزه الإله الحق عن كل مثيل وشبيه، وله المثل الأعلى سبحانه ـ نضرب مثالا برجل هجم عليه كلب لينهشه، ثم رأى من بعيد أسدا يقترب منه، ماذا سيكون رد فعله؟ إن الهلع الذي سيقع في قلبه خوفا من الأسد يمكن أن ينسيه تماما وجود هذا الكلب العقور، حتى ولو عضه بالفعل.

والذي نقصده، هو أن المخزون البيئي المستكن أو المتغلغل في النفس عن قوة الأسد وشدة افتراسة هي التي أفزعت هذا الرجل بمجرد رؤياه، مع أنه ما زال بعيدا عنه، ولولا هذا المخزون النفسي، لكان من الممكن أن يتصدى للكلب ليمنعه من العض، في نفس الوقت الذي يمكنه من الاختباء من الأسد، ولكنه التفاوت الهائل بين القوتين وخطرهما، قوة الكلب وقوة الأسد، هي التي غلّبت هذا الفزع على كل ما عداه.

ويمكن القياس على هذا المثال صورا أخرى عدة، ومنها إذا طلب محتاج فقير من غني طلبا ثم طلب هذا الطلب من ذي غنى وجاه وسلطان،

ما هو الأثر الذي تهفو إليه نفسه تجاه كل من الرجلين، الذي لا شك فيه أنه كلما ازدادت مكانة المطلوب منه رفعة وشأنا كلما كانت الأماني فيه أكبر، وهذا مما يدركه الناس ولا يختلفون فيه، كما أنه كلما ازداد البيت أو الحصن منعة، كلما غلب على ظن ساكنه أنه أكثر حماية وأمانا، وهكذا.

ولما كان كل ما عُبد من دون الله لا قيمة حقيقية له {مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ}[1]، أيقنا ضرورة أن مفهوم العبودية التي يدين بها الناس لهذه الآلة مفاهيم شائهة، لا تصلح مطلقا أن تكون مفهوما حقيقيا للعبودية الحق، لله الواحد الأحد الفرد الصمد، الله رب العالمين.

إن مبنى العبودية الحق، والأصل الذي تقوم عليه، ينبع مما ترسخ في النفس من حقيقة الإله المعبود، وحوله وقوته وعظمته وسلطانه.

وفي هذا المعنى يقول الإمام ابن تيمية: (وَكُلَّمَا قَوِيَ طَمَعُ الْعَبْدِ فِي فَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ وَرَجَائِهِ لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ وَدَفْعِ ضَرُورَتِهِ قَوِيَتْ عُبُودِيَّتُهُ لَهُ وَحُرِّيَّتُهُ مِمَّا سِوَاهُ؛ فَكَمَا أَنَّ الطَّلَبَ مِنْ غَيْرِ اللهِ وَالرَّجَاءِ لَهُ يُوجِبُ انْصِرَافَ قَلْبِهِ عَنْ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ؛ لَا سِيَّمَا مَنْ كَانَ يَرْجُو الْمَخْلُوقَ وَلَا يَرْجُو الْخَالِقَ؛ بِحَيْثُ يَكُونُ قَلْبُهُ مُعْتَمِدًا إمَّا عَلَى رِئَاسَتِهِ وَجُنُودِهِ وَأَتْبَاعِهِ وَمَمَالِيكِهِ؛ وَإِمَّا عَلَى أَهْلِهِ وَأَصْدِقَائِهِ؛ وَإِمَّا عَلَى أَمْوَالِهِ وَذَخَائِرِهِ؛ وَإِمَّا عَلَى سَادَاتِهِ وَكُبَرَائِهِ؛ كَمَالِكِهِ وَمِلْكِهِ؛ وَشَيْخِهِ وَمَخْدُومِهِ وَغَيْرِهِمْ؛ مِمَّنْ هُوَ قَدْ مَاتَ أَوْ يَمُوتُ)[2].

---

١ سورة يوسف: ٤٠.

٢ انظر مجموع فتاوى ابن تيمية.

ويستدل **الإمام ابن تيمية** بقوله تَعَالَى {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا}[1].

وقبل أن استكمل كلام **الإمام ابن تيمية** أقول: إن من هدي الإسلام أن يضع من الأسباب ما يساعد على تعلق القلب بالشرع وليس بالخلق، فنهى عن التشبه بغير المسلمين في كل أمورهم، وحتى يكون عدم التشبه بصفات غير المسلمين منبها دوما على خصوصية أهل الشرع، فلا تزيغ قلوبهم كما زاغت قلوب غيرهم، فإن العين والأذن هي الرسول إلى القلب، فمن استساغ مظهرا من المظاهر، أو نوعا من السماع، لان له قلبه وتعلق به.

ويؤكد هذا المعنى الإمام ابن تيمية بقوله: (وَكُلُّ مَنْ عَلَّقَ قَلْبَهُ بِالْمَخْلُوقَاتِ أَنْ يَنْصُرُوهُ، أَوْ يَرْزُقُوهُ، أَوْ أَنْ يُهْدُوهُ خَضَعَ قَلْبُهُ لَهُمْ؛ وَصَارَ فِيهِ مِنْ الْعُبُودِيَّةِ لَهُمْ بِقَدْرِ ذَلِكَ.

فَإِنَّ أَسْرَ الْقَلْبِ أَعْظَمُ مِنْ أَسْرِ الْبَدَنِ، وَاسْتِعْبَادَ الْقَلْبِ أَعْظَمُ مِنْ اسْتِعْبَادِ الْبَدَنِ، فَإِنَّ مَنْ اسْتَعْبَدَ بَدَنَهُ وَاسْتَرَقَّ لَا يُبَالِي إذَا كَانَ قَلْبُهُ مُسْتَرِيحًا مِنْ ذَلِكَ مُطْمَئِنًّا، بَلْ يُمْكِنُهُ الِاحْتِيَالُ فِي الْخَلَاصِ، وَأَمَّا إذَا كَانَ الْقَلْبُ الَّذِي هُوَ الْمِلْكُ رَقِيقًا مُسْتَعْبَدًا مُتَيَّمًا لِغَيْرِ اللهِ فَهَذَا هُوَ الذُّلُّ وَالْأَسْرُ الْمَحْضُ، وَالْعُبُودِيَّةُ لِمَا اسْتَعْبَدَ الْقَلْبُ)[2].

ويُمكن أن نفهم هذا المعنى من قوله تعالى: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}[3].

---

١ سورة الفرقان: ٥٨.

٢ انظر مجموع فتاوى ابن تيمية.

٣ سورة الحج من الآية: ٤٦.

ولهذا كان مدار الحساب متعلقا بقدر الإخلاص لله تعالى في التوجه بالعبادات والإقرار بالعبودية، لأن الإخلاص ينبع من القلب.

يجلي **الإمام ابن تيمية** هذا المعنى بوضوح وروعة بيان فيقول: (وَعُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ وَأَسْرُهُ هِيَ الَّتِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، فَإِنَّ الْمُسْلِمَ لَوْ أَسَرَهُ كَافِرٌ؛ أَوْ اسْتَرَقَّهُ فَاجِرٌ بِغَيْرِ حَقٍّ لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ إذَا كَانَ قَائِمًا بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ الْوَاجِبَاتِ، وَمَنْ اسْتَعْبَدَ بِحَقٍّ إذَا أَدَّى حَقَّ اللهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ لَهُ أَجْرَانِ، وَلَوْ أُكْرِهَ عَلَى التَّكَلُّمِ بِالْكُفْرِ فَتَكَلَّمَ بِهِ وَقَلْبُهُ مُطَمْئِنٌ بِالْإِيمَانِ لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ وَأَمَّا مَنْ اسْتَعْبَدَ قَلْبَهُ فَصَارَ عَبْدًا لِغَيْرِ اللهِ فَهَذَا يَضُرُّهُ ذَلِكَ، وَلَوْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ مَلِكَ النَّاسِ، فَالْحُرِّيَّةُ حُرِّيَّةُ الْقَلْبِ، وَالْعُبُودِيَّةُ عُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ.

فَإِن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله مَا يمنعهُ عَن عبوديته لغيره وَمن حلاوة محبته لله مَا يمنعهُ عَن محبَّة غَيره إِذْ لَيْسَ عِنْد الْقلب السَّلِيم أحلى وَلَا ألذ وَلَا أطيب وَلَا أسر وَلَا أنعم من حلاوة الْإِيمَان المتضمن عبوديته لله ومحبته لَهُ وإخلاص الدَّين لَهُ وَذَلِكَ يَقْتَضِي انجذاب الْقلب إِلَى الله فَيصير الْقلب منيبا إِلَى الله خَائفًا مِنْهُ رَاغِبًا رَاهِبًا كَمَا قَالَ تَعَالَى: {من خشِي الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بقلب منيب}[1]، انتهى)[2].

١ سورة ق: ٣٣.

٢ انظر مجموع فتاوى ابن تيمية.

مفهوم العبادة:

العبادة كما بينا هي أثر أو ثمرة للعبودية، فهما متلازمان أبدا، لا توجد واحدة دون وجود الأخرى، وإذا قيل بوجود واحدة منهما دون الأخرى فهي فارغة من المعنى والمضمون، ولا قيمة لها على الإطلاق، بل هي مجرد دعوى باللسان لا انعكاس لها على النفس بأي صورة من الصور، تماما كما في دنيا الناس لم نجد عبدا لا يقوم على خدمة سيده، بل لو كان كذلك لكان حرا، وكونه عبد فلابد أن يقوم بالخدمة المطلوبة، والتي تقابلها العبادة، لأن العبادة هي الخدمة بالنسبة للمعبود.

وقد ورد في الأثر عن الْحَسَنَ ﷺ قوله: «إِنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ بِالتَّحَلِّي، وَلَا بِالتَّمَنِّي، إِنَّ الْإِيمَانَ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ، وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ»[1]، فكل ما وقر في القلب فهو المراد بالعبودية، والتصديق بالعمل هو العبادة، فلا يصدق أحدهما دون الآخر.

ولهذا:

فقد استقر معنى العبادة على أنها الخدمة، وما في معناها، كما أوردته مراجع اللغة: يقول **الإمام المناوي**: (العبادة: فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيما لربه، وقيل: تعظيم الله وامتثال أوامره، وقيل: هي الأفعال الواقعة على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد لبعض، ولذلك اختص الرب فهي أخص من العبودية لأنها التذلل)[2].

---

١ مصنف ابن أبي شيبة.

٢ انظر: التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي.

☜**وقوله**: على خلاف هوى نفسه هو في ذاته دليل الذل والخضوع، فما من إنسان يقاوم هواه إلا لسبب، وهذا السبب إما القهر أو العبودية.

وفي المخصص لابن سيده: (أصل الْعِبَادَة فِي اللُّغَة التّذليل من قَوْلهم: طَرِيق مُعَبَّد: أَي مُذّلَّل، بِكَثْرَة الْوَطْء عَلَيْهِ، وَمِنْه أُخذ العَبْد لذلته لمَوْلاهُ، وَالْعِبَادَة والخضوع والتّذلل والاستكانة قرائب فِي الْمعَانِي، وكل خضوع لَيْسَ فَوْقه خضوع فَهُوَ عبَادَة، طَاعَة كَانَ للمعبود أَو غيرَ طَاعَة، وكل طَاعَة لله على جِهَة الخضوع والتّذلل فَهِيَ عبَادَة، وَالْعِبَادَة نوع من الخضوع لَا يسْتَحقّهُ إلاّ المُنعِم بِأَعْلَى أَجنَاس النّعم كالحياة والفهم والسّمع وَالْبَصَر والشّكر)[1].

وكما بينا فإنه لولا العبادة لما استقرت عقيدة أو عبودية في نفوس العباد، ولهذا كان لابد من العبادة، والتي تمثل الخدمة، أو الطقوس التي يقوم بها كل من ينتمي إلى عقيدة ما، حتى تظل العقيدة حاضرة في القلوب والنفوس، ولأنه لو اجتمع الناس على قناعة ما أو عقيدة ما ثم لم يطالبوا بشيء غير القناعة، لاستحال على هذه الجماعة أن تظل على اجتماعها إذا طالت المدة، ولأصبحت هذه القناعة أو العقيدة بعد فترة هباء منثورا، كأي شيء يولد في النفس كشعور قوي ثم يخفت ويخبو على مر الأيام، سواء أطالت المدة أم قصرت، إلى أن ينعدم أثره، تماما كتأثير الحزن في النفوس ـ على سبيل المثال ـ الذي يولد قويا حتى يظن صاحبه أنه لن يفارقه أبدا، ثم لا يلبث أن يزول.

---

١ انظر: المخصص لابن سيده.

كذلك كل ما وقر في القلب من قناعة أو إعتقاد ما لو لم يتعهده صاحبه بالتنبيه والمتابعة، لضاع أثره مع مرور الوقت.

ولهذا السبب شرعت العبادة تثبيتا للعقيدة، وإظهارا للعبودية، وتحقيقا لمعناها، وليظل مفهوم العبودية ملازما للإنسان في كل حالاته.

ولهذا كانت العبادة في الإسلام كثيرة العدد والتنوع مرات كثيرة عن غيرها في أي شريعة أخرى، سواء أكانت وضعية بشرية، أم كانت عن طريق الوحي والرسل ثم نالها التحريف.

وهذا لا يتعارض مع كون بعض أعمال العبادة في شريعة سيدنا موسى عليه السلام كانت أشق من مثيلتها في شريعة سيدنا محمد ﷺ، حيث كانت التوبة في شريعة سيدنا موسى عليه السلام لا تكون إلا بقتل النفس، كما يبينه قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[1].

ولكن قياس القلة والكثرة لا يتعلق بالشدة والقسوة أو عدمها، بل بمقدار ما يتكرر ما يُطالب به الإنسان من عمل، فإن المداومة على أي عمل مهما كان سهلا أشق كثيرا من تحمل مشقة عمل تؤدى لمرة واحدة، مهما كانت قسوة هذه المشقة أو صعوبتها.

ولعل أحدا لو سأل الذين استشهدوا في ساحات الجهاد أيهما كان أيسر بالنسبة لهم، الشهادة أم المداومة على الكف عن المعاصي بمختلف صورها، لقالوا إن الشهادة أيسر كثيرا.

---

١ سورة البقرة: ٥٤.

ويمكن أن نستخلص هذا المعنى من قوله تعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ، الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}[1].

وكون الصلاة شديدة ثقيلة فاليقين أن هذه الأوصاف ليس بسبب أدائها لمرة واحدة مثلا أو لمرات قليلة معدودة، إن الثقل والشدة يرجع إلى المداومة والاستمرار الذي لا ينقطع، ولا تزول شدتها إلا بكمال الخضوع والذل والعبودية لله رب العالمين.

وقوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ}[2].

يبين أن زوال الشدة والثقل هو منحة من الله تعالى، وهداية منه سبحانه، وهذا يعيدنا إلى أن غاية الذل والخضوع هي التي تفتح أبواب الرحمة والإنعام التي يفيض بها الرحمن تبارك وتعالى على عباده الخاشعين المتذللين المحققين للعبودية الحق على الوجه الذي يرضاه سبحانه.

ومن هنا يختلف مفهوم العبادة في الإسلام عن باقي عبادات أهل الأرض جميعا، حيث إنها العبادة الوحيدة التي ارتضاها الخالق سبحانه لأهل الأرض جميعا دون سواها، {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[3].

---

١ سورة البقرة: ٤٥، ٤٦.

٢ سورة البقرة: ١٤٣.

٣ سورة آل عمران: ٨٥.

والذي نلفت النظر إليه ونزيد من الاهتمام به، أن كل عبادات أهل الدنيا التي شرعها البشر تتمثل في القلة والخفة بحسب المعيار الذي بيناه، ولولا هذا لانصرف معظم هؤلاء عن العبادة بالكلية، حتى يصل الأمر إلى طمس معالم العقيدة في النفوس رويدا رويدا حتى تنمحي.

وكل عقائد أهل الدنيا لابد لها من هدف، وإلا لكانت نوعا من العبث، وهو ما لا يعقل أن يقع فيه أكثر الخلق، لأنه ـ كما بينا ـ لا يمكن أن يتنازل الإنسان طواعية عن شيء من شهواته ورغباته أو ممتلكاته، إلا إذا كان لهذا التنازل مقابل حقيقي.

ونظرا لأن هذه العقائد لا ترتكز على مفهوم صحيح للألوهية والعبودية، بل كلها جميعا فيما عدا الإسلام صاغها البشر وعبّدوا الناس لها، والنتيجة المترتبة على ذلك أن كل ما وعد به أهل هذه العقائد سيكون غيبيا بحتا، لا أثر ملموس له ألبتة، ولهذا لو ثقلت عليهم أعباء العبادة فإن الكثير منهم سينصرف عنها، ويتركها بالكلية، حيث إن المداومة ثقيلة ولا يتحملها إلا الخواص وهم قلة، ولهذا حرص أهل هذه العقائد على التخفيف والتسهيل الذي يجذب الناس ويؤلفهم ويساعدهم على الالتصاق بالعقيدة قدر الإمكان.

📖 **بينما عند أهل الإسلام يختلف أمر العبادة عن ذلك بالكلية، كما يتضح مما يلي:**

العبادة حق لله وحده:

لما كانت العبادة في الإسلام يقصد بها تحقيق مفهوم العبودية الحق لله رب العالمين، فقد شرعها الخالق سبحانه على الوجه الذي يرضيه، والذي لا يشاركه فيه أحد من المخلوقين قط، قال عز من قائل: {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[1]، وقال جل وعلا: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ}[2].

وعبادة هذا وصفها لا يصلح فيها مطلقا أي اشتراك من قبل المخلوقين بأي وجه من الأوجه، إلا ما كان عن طريق الوحي.

ولأنه الإله الحق فلم يكِل إلى أحد من الخلق قبول العبادة أو ردها، ومن هنا لا يوجد وسطاء بين الخلق والخالق يقبلون العبادة أو يرفضونها، وبخاصة أن مفهوم العبادة الحق يشترط فيه خلوص النية لصاحب العبادة، وهو الخالق جل في علاه، وليس قاصرا على أعمال العبادة الظاهرة، وإذا كان البشر بمقدروهم الاطلاع على الأفعال الظاهرة، فلا طاقة لهم ولا سبيل إلى الاطلاع على نوايا النفوس، بل هو المطلع سبحانه على ما لا يحيط به المخلوقين جميعا، ولو اجتمعوا، {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي

---

١ سورة يوسف: ٤٠.

٢ سورة الزمر: ٣.

الصُّدُورُ}[1]، كما أخبر عن نفسه، جل وعلا: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}[2].

فإن قيل: إن العلم بما توسوس به النفس، وتخفيه الصدور دعوى زائفة، وتنزه الله عن ذلك، لكان الجواب هو: فلم لم يدعِ هذا الادعاء إله مما عبده الناس، أو دانوا له بالعبودية، كفرا وضلالا.

فإنه لا وسيلة لهذه الآلهة إلى علم خواطر النفس، التي لم يفصح عنها اللسان، لأنها آلهة زائفة، لا تنازع الإله الحق صفة من صفاته، ولو ادعى صانعوها مثل هذا الادعاء فسرعان ما يظهر زيفهم بالواقع الذي لا يكذب.

وبالمقابل أقام الله ﷻ الدليل والبرهان على أن قوله الحق، في كل ما أخبر به سبحانه، وذلك في أمر ملموس يلمسه الخلق جميعا ألا وهو الموت، حيث أخبر سبحانه أن كل نفس سوف تموت لا محالة: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}[3].

☜ **وقد يقول قائل**: إن الموت أمر مشاهد يعلمه كل أحد، فلا حجة فيه.

☜ **والجواب عن ذلك**: أن كونه أمرا ملموسا يشاهده كل أحد ليس معناه بالضرورة أنه سيلحق الناس جميعا، بل لعل العلم ـ عند من يقول بذلك ـ ينجح في منع الموت، وبخاصة أنه لا توجد جهة ما من جهات الدنيا ترى سببا لوجوب الموت، بل إنهم يجتهدون ويحاولون التغلب عليه، سواء أكان بزراعة الأعضاء، أم بغير ذلك من الطرق العلمية.

---

١ سورة غافر: ١٩.

٢ سورة ق: ١٦.

٣ سورة العنكبوت: ٥٧.

ومع هذا كم عليل به من الأمراض والأسقام ما يجعل أهل الطب والعلاج ييأسون من حياته، ولكنه لا يموت بل يظل يكابد الحياة إلى أن يأتيه الموت بغتة، وبالمقابل يموت الصحيح المعافى من كل داء، فلا يملك أهل الأرض دفع الموت عنه، ولو استطاعوا لكان إعادة الجسد السليم الذي مات فجأة أيسر كثيرا من شفاء العليل ذي المرض والأسقام.

وصدق الخالق جل في علاه إذ يقول: {الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[1].

فلماذا تحدى سبحانه الخلق بأن يمنعوا الموت؟

إن منشأ هذا التحدي لا يمكن أن يصدر إلا عمن يملك ما لا يملكه غيره، وهذا الوصف ليس إلا لله سبحانه، ولولا أنه ﷻ أخبر بذلك لكان نجاح العلماء في منع الموت ممكنا فليس فيه مستحيل لذاته، ومما يدل على هذا أن سيدنا نوح عاش ما يقرب من ألف سنة أو يزيد، {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا}[2].

ولكن الله شاء أن تكون أعمار هذه الأمة قصيرة، ليس لشيء إلا لمشيئته سبحانه، فهل نجح أهل الأرض في تأخير الموت ولو إلى مثل العمر الذي عاشه الإنسان فعلا، متمثلا في سيدنا نوح عليه السلام؟

إن وجه الاستحالة فقط هو خبر الخالق سبحانه، فلو لم يكن سبحانه هو صاحب الخلق والأمر، لما كان هناك مانع من تأخير الموت أو منعه بالكليه، ولكنه جل في علاه هو الذي يملك سر الحياة ولا يملكه غيره،

---

١ سورة آل عمران: ١٦٨.

٢ سورة العنكبوت: ١٤.

حيث قال: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[1].

فالجسد بعد الموت يمكن أن يكون بالمقاييس العلمية صالحا للحياة تماما، ولكن الله سلبه الروح وكتب عليه الموت، فلم ينجح العلم ولا العلماء في إعادة الحياة إليه لأنهم لا يعلمون عن الروح شيئا.

ولعل ما يشاهده الناس من موت الفجأة الذي يداهم بعض الناس وهم في أحسن حالاتهم الصحية، ويمارسون أعمالهم كأحسن ما يكون، خير دليل على ذلك.

ولو كان هناك في الكون من ينازع الخالق سلطانه لأعلن فورا أنه سيمنع الموت عن الناس، أو سيعيد لهذا الجسد الصحيح الحياة، ولكن هذا لم يوجد، ولن يوجد.

وكذلك الذين يقولون بأن الخلق وجد هكذا كأن الطبيعة أوجدت نفسها وأوجدت الخلق بغير خالق، وإذا كان الأمر كذلك فإن العلماء قادرون على منع الموت لأن كل ما في الطبيعة معلوم لديهم، وما غاب عنهم سابقا قد علموه لاحقا، وسيعلمونه لا محالة.

ولا يمكن أن يقال إن الطبيعة تمنع أو تحول دون ذلك لأنها لو كانت تملك هذه القدرة لكانت عاقلة، ولو كانت كذلك لأفصحت عن نفسها، فليس هناك أي عاقل يقبل أن يُنسب فعله إلى غيره، فلما لم تفعل علمنا أنها ليست عاقلة وليست فاعلة، وهكذا لم يبق إلا خبر الخالق سبحانه الذي لا

---

١ سورة الإسراء: ٨٥ .

يعارضه خبر على الإطلاق، فدل على أنه وحده صاحب الملك والملكوت والخلق والإيجاد الذي لا ينازعه فيه أحد.

إن صحة الخبر، وأقصد ما أخبر به الحق سبحانه أن كل نفس سوف تموت، يجب أن يكون كافيا عند أي عاقل ليصدق كل ما أخبر عنه ولم يُقم على صحته دليلا لذاته.

فكونه ﷻ يعلم خائنة الأعين وما تخفيه الصدور لا توجد بينه مادية ملموسة على صحته وحقيقته إلا إنه خبر الحق جل في علاه، ولهذا كان التصديق به محتما، ولو توقف تصديق كل خبر على البرهان المادي الملموس لانتفت معاني العبودية، وبالتالي لكانت العبادة قهرا واضطرارا، وهذا ليس مراد الله تعالى: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا}[1]، ولهذا يأبى الله إلا أن تكون العبودية الحق عن رغبة واختيار، وليس عن قهر وإجبار.

ولتقريب الصورة نفترض ـ جدلا ـ أن من اختلس نظرة حرام سيصيبه الله فورا بمرض في عينه أو يفقد إحدى عينية أو كلتيهما، لو حدث هذا ـ على سبيل المثال ـ لكان كل من أراد فعل هذا الحرام مرعوبا أن يحدث به هذا العقاب الفوري، وبالتالي سينصرف عن هذا الحرام، وعندها سيكون انصرافه ليس طاعة واختيارا، ولكن قهرا واضطرارا، وهذا يغاير مراد الله تعالى، الذي يريد جل في علاه أن تكون العبودية والطاعة والعبادة عن رغبة واختيار، ليكون للجنة نصيبها بحق، وللنار نصيبها بحق، وهكذا لا يمكن

١ سورة الكهف: ٢٩.

أن يتحقق مفهوم العبودية الحق، إلا بالإيمان بالغيب، وعندها تكون العبادة ثمرة الطاعة الحقيقية، أي رغبة واختيارا.

فهل أقام إله مما عبده الناس كفرا الحجة على غيب أخبر به؟؟؟.

وبسبب عجز كل معبود سوى الله عن إقامة الحجة والبرهان على أمر غيبي، تناسبت عبادتهم مع ما هو في مقدور صانعيهم، وهي الأمور المادية الملموسة فقط، فإنها لا تملك دليلا على غيب تخبر به، مهما كانت الصورة التي تؤدى بها هذه العبادة"[1].

١ حتى ما يخبر به السحرة والكهنة من أمور ليست في مقدور عامة الناس، يعلمها غيرهم من السحرة والكهنة، لأن طريق معرفتها واحد، وهي ما توسوس لهم الشياطين بها، وفي الآية الكريمة: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} سورة البقرة: الآية ١٠٢.

العبادة وحتمية المشقة:

المشقة من الأمور الحسية التي لازمت العبودية وعرفتها البشرية على مر العصور، فإن استعباد الإنسان لأخيه الإنسان من الأمور الموغلة في القدم، كما يقول أهل العلم، ولهذا فقد اجتهد الإنسان في العمل على تقليل المشقة إلى أقصى درجة ممكنة، حيث لا يمكن التحرر منها بالكلية، ولقد نجح أيما نجاح في الوصول إلى هذا الهدف، وبخاصة بعد أن تم القضاء على نظام الاستعباد، الذي كان يسخر الإنسان لخدمة الإنسان.

ولهذا أصبحت أي مشقة يقوم بها الإنسان تعود عليه بالكسب والفائدة المادية، وهكذا أصبحت مقبولة لدى البشر، بغير ضيق أو غضاضة.

ومن هنا وكما أوضحنا كانت سائر العبادات الوضعية ـ أي التي ابتدعها البشر ـ قليلة العدد وسهلة الأداء، إذا ما قورنت بمفهوم العبادة في الإسلام، حيث لا يوجد مقابل أو مكسب مادي يقابل المشقة التي تستوجبها العبادة، فكانت عبادتهم أقرب ما تكون إلى موافقة الهوى، ولعلها لا تخلو من شيء من الترفيه أحيانا، بأن تأخذ صورة محبوبة للناس لا يترتب عليها أي معاناة أو شدة، إلا كما يقوم الإنسان برياضة ما، دون أن تمثل بالنسبة له حملا أو عناء ملحوظا، لكونها على فترات متباعدة، لا تعطل كسبا، ولا تستنفذ طاقة ومجهودا يشق على فاعلها.

ولا يقدح في هذا المعنى أن بعض العبادات عند غير المسلمين كانت شديدة قاسية، ولكنها مع هذا كانت أقرب إلى تصرف آحاد الناس، وليست مما يكلف به كل فرد، والعمل القاسي الشديد إذا فُعلَ مرة واحدة قد يكون

أسهل كثيرا من العمل السهل الخفيف الذي يجب المداومة عليه بانتظام أبدا"[1].

كذلك لا يقدح في ذلك بعض أنواع الصيام، التي عليها بعض أهل الكتاب لأنها لا تزيد في حقيقتها عن صيام المسلمين، وبخاصة إذا ما ضم إلى الصيام الواجب صيام النفل عند المسلمين، ومع هذا فعدم مشقة الصيام منفردة مقارنة بصيام غير المسلمين ـ لو قيل إنها كذلك ـ لن تكون أقل مشقة إذا اجتمع معها مشقة الصلوات اليومية، ومشقة التحري للحلال والحرام في العقود والمعاملات، وغير ذلك.

ونقصد بالمشقة التي خلت منها عبادتهم المشقة الزائدة عن الأمور المعتادة، لأنه لا يمكن أن ينظر إلى مطلق المشقة، فإن ممارسة كل متع الحياة، حتى الأكل والشرب، لا تخلو من مشقة ما ـ إذا ما قورنت بالعدم، فلهذا فمشقة عبادتهم لم تخرج عن هذا الوصف للمشقة إلا قليلا.

بينما العبادة الحق لابد أن تقوم بالضرورة على مشقة تزيد حتما عن المشقات المعتادة في ممارسة أمور الحياة المتعلقة بالشخص نفسه، ولولا هذا لما كان هناك معنى للعبودية.

حتى ولو كانت هذه المشقة هي ترك شهوة من الشهوات فمع أنها ليست عملا ماديا، فقد تكون أشق كثيرا من أي عمل عضلي ملموس.

---

١ أطلقنا على طقوس غير المسلمين لفظ عبادات لأنها كذلك من منظورهم، ولا يعني هذا أننا نقرهم على أنها عبادة حقا.

فالمشقات منها ما هو عضلي محسوس، ومنها ما هو نفسي ولكن يعود على سائر الجسد بالإرهاق والتعب، أو القلق والعناء، أو غير ذلك من صور المشاق.

ولقد تنوعت العبادة في الإسلام ليتحقق فيها كل صور المشاق، التي تزيد عن المشقات المعتادة، ولعل مما يشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ}[1]، فالكادح إلى ربه هو الذي يجتهد ويعاني في سبيل طاعته والامتثال لمراده ﷻ، والكدح دليل على المشقة التي يتحملها الكادح، وإن كانت تظل دائما في طاقة الإنسان ومقدوره، دون أن تخل بباقي متطلبات حياته، وذلك لتحقق حياة المسلم كلها مفهوم العبودية الحق لله رب العالمين.

فقد كانت حياة العبيد مملوكة لأسيادهم من البشر ملكية تامة، فلأن تكون مملوكة لخالقها سبحانه وتعالى أولى وأحق، ولتكن كل أمور حياتهم يصرفها خالقها كيف شاء سبحانه، {قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ}[2].

فكان محتما أن تكون عبادتهم محققة لهذا المعنى في كل وقت وحين، فشرعت الصلاة على مدار اليوم كله، مع تكررها سائر الأيام، وهكذا سائر أفعال الإنسان وتصرفاته في عقوده ومعاملاته، {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[3].

---

١ سورة الانشقاق: ٦.

٢ سورة آل عمران: ١٥٤.

٣ سورة الأنعام: ١٦٢.

ومع أن العبادة حق لله تعالى، لأنه الخالق ومالك كل شيء ومليكه، ومع هذا لو كانت مقابل شكر نعمه التي لا تحصى على الإنسان لما وفَّت شكر نعمة واحدة، إلا أن الكريم سبحانه قد وعد عبيده بالأجر والثواب الذي لا يمكن أن يضاهيه أجر وثواب مهما بلغ.

إن هذا الأجر والثواب ليس قاصرا على الحياة الأخروية، بل إن منه ما يعود عليه في الدنيا بما تقر به عينه وتطيب به نفسه، وليس هذا لغير المسلم.

إن الإنسان الذي لا تؤدي جوارحه العبادة يفقد معنى العبودية، فليست العبودية بمجرد النوايا أو كلمات اللسان، ولكن لابد من دليل وبرهان، يكون على خلاف هوى الإنسان، ولابد أن يؤدي إلى فوات كسب، أو فقد مال، أو غير ذلك مما يحرص عليه الناس.

وكل هذا مما يشق على الإنسان ولكن لا يمكن أن تتحقق العبودية إلا به، ولهذا فإن كل من ترك عبادة من العبادات، فكأنما نازع مالكه الحق في استعباده، وكان السادة يقتلون العبد الذي يفعل ذلك، من هول وفداحة الجرم المتمثل في منازعة السيد.

فمن ترك العبادة فكأنما حرر نفسه من العبودية، وهو لا يملك تحرير نفسه، بل الذي يحرره هو سيده، فكأنما نازع الخالق سبحانه حقا لا يملكه سواه، والعياذ بالله من ذلك، فإن هذا هو الكفر بصورة من صوره، وقانا الله منه ومن كل زيغ أو ضلال.

المشقة والتيسير في العبادة:

بينا أنه لا عبادة بغير مشقة، وأنها ليست المشقات التي تستلزمها الحياة، بل هي مشقة أكبر من المشقة المعتادة، وقد يتعارض هذا المعنى مع ما يفهمه الناس من أن الدين يسر، ولكن حقيقة الأمر أنه لا يوجد أي تعارض على الإطلاق، ولكن يحتاج الأمر إلى التوضيح لا غير.

فإن التعب والمشقة من الأمور النسبية التي ليس لها مقياس مادي تقدر به، بل تتفاوت تفاوتا كبيرا من إنسان إلى آخر، وهذا مما تدركه الأبصار، ولا يحتاج في إثباته إلى دليل، فلرب شاب يرهقه التعب من حمل ثقل ما، يحمله غيره مرات ومرات دون أن يشعر بمثل هذا التعب، وكذلك التباين الشديد ـ على سبيل المثال ـ في التأثر بالبرد الشديد والحر الشديد حتى وكأن الناس على طرفي نقيض، وهكذا كل أنواع المشاق المختلفة.

وكل ما كان هذا شأنه لا يصلح فيه مطلقا الاحتكام إلى آحاد الناس، لأن الأمر لو تم مراعاة الضعيف فيه، فسوف تنتفي المشقة تماما بالنسبة للقوي، وبالتالي ينعدم مفهوم العبودية بالنسبة له، أو يكاد، ولو تم مراعاة حال القوي فسوف يكون العناء والتعب على الضعيف شديدا، بما يلغي مفهوم اليسر بالكلية، وهكذا، لا يتناسب الاحتكام إلى البشر في هذا الأمر على الإطلاق.

ومن هنا فمفهوم اليسر في العبادة يتمثل في الرخص الشرعية، وكذلك التخفيف عنهم مقارنة بما كان سابقا، حيث قال تعالى: {وَيَضَعُ عَنْهُمْ

إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ}[1]، فقد كانت التوبة في شريعة سيدنا موسى عليه السلام قتل النفس، كما كانت إزالة النجاسة بقطع الجزء من الثياب الذي وقعت عليه، بما يعنيه من إتلاف المال، وهكذا، بينما تم تخفيف كل ذلك في شريعتنا فضلا منه سبحانه ورحمة، فيكفي في التوبة الصدق والإخلاص والعزم على عدم العود مع رد المظالم وكل هذا ميسور مقارنة بما سبق.

وكذلك يتمثل اليسر على المعنى الصحيح كما في حديث الصلاة: أن الخالق سبحانه فرض الصلاة على أمة محمد ﷺ، خَمْسِينَ صَلَاةً، ثم مازال رسول الله ﷺ يسأل ربه التخفيف حتى صارت خمسا، ففي الحديث: "فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَبَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً"، قَالَ: "فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ"، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ"[2].

وقد توقفت كثيرا أمام هذا الحديث لأفهم الحكمة من هذا التكرار، وغلب على ظني أن المراد هو تنبيه العباد على أن طاقتهم تتحمل أن تكون الصلاة خمسين صلاة في اليوم والليلة، ولكنها تكون سببا في إنهاكهم غاية

١ سورة الأعراف: ١٥٧.

٢ صحيح مسلم.

الإنهاك وتعبهم التعب الشديد، وقد علم الخالق سبحانه في الأزل أنه سوف يخففها لتصير خمسا، ولكن يُراد أن يدرك الناس قدر اليسر والتخفيف التي صارت عليه، فيشعروا بقدر النعمة والمنة، ولأنه ﷻ لو لم يخففها لما لكان لأحد مهرب من الطاعة والامتثال، وإلا استحق نار جهنم والعياذ بالله.

فليس للعبد أن يسأل سيده عن شيء أمره به، حتى ولو كان هذا الشيء ينوء بقوته ويهد جسده حتى يقارب الموت، فحياة العبد هي ملك لسيده بالكامل، يفعل بها ما يشاء.

ولكن رحمة منه سبحانه خفف ويسر، فالخفة هنا واضحة ولكنها تقارن بما كان يمكن أن يكون، وليس مقصودا بها التخفف من أعباء العبادة بالهوى والتشهي، أو بما تراه العقول.

وهكذا يستقيم الأمر ويتضح أن مفهوم العبادة الصحيح هو الامتثال والإذعان لما شرعه الخالق سبحانه، على الوجه الذي أمر به، دون أن يكون لمخلوق حق في التصرف في هذا الشرع من قبل نفسه، بأي وجه من الأوجه.

ثمرة العبادة الحق:

قد علمنا أن لكل غرس ثمرة، وكلما عظمت الثمرة كلما ازدادت العناية والحرص على شجرتها، وكذلك العبادة كلما علمنا ثمرتها كلما كان هذا أعون على الصبر عليها، والمجاهدة في إقامتها، كما يحب الخالق ويرضى سبحانه.

وقد ذكرنا بعض ثمرات العبادة من حيث اطمئنان القلب وسكينة النفس، وكذلك ما وعد به الخالق سبحانه من جنات الخلد، {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[1].

وكذا قوله تبارك وتعالى: {وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ}[2].

وجمع بين خيري الدنيا والآخرة كما في قوله جل وعلا: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ}[3].

---

١ سورة يونس: ٢٦.

٢ سورة إبراهيم: ٢٣.

٣ سورة محمد: ٢.

والمعنى كما يبينه الإمام القرطبي: (قوله تعالى: "وَأَصْلَحَ بالَهُمْ" أَيْ شَأْنَهُمْ، عَنْ مُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: حَالُهُمْ، ابْنُ عَبَّاسٍ: أُمُورُهُمْ، وَالثَّلَاثَةُ مُتَقَارِبَةٌ وَهِيَ مُتَأَوَّلَةٌ عَلَى إِصْلَاحِ مَا تَعَلَّقَ بِدُنْيَاهُمْ)[1].

فصلاح البال هو من خير الدنيا كما اطمئنان القلب وسكينة النفس.

☜ **وقد يقول قائل:**

إن هذه الأمور ينعم بها أيضا غير المسلمين، وبالتالي فهي ليست ثمرة العبادة وحدها، وبخاصة أن معظم الخلق يربطون بين سعة العيش وكثرة المال وبين صلاح البال، وأما بالنسبة للجنة فيقول هي من الأمور الغيبية التي لا نعلم عنها شيئا، ولعلها لا تكون قاصرة على أن تكون ثمرة للعبادة، كما هو الحال في صلاح البال.

📖 **ويمكن أن يجاب عن هذا من وجهين:**

☜ **الوجه الأول:**

إن الأمور النفسية لا يمكن فيها الجزم بشيء على وجه اليقين، نظرا لأنها غير مرئية ولا ملموسة، وبالتالي يسهل الادعاء فيها على أي وجه كان، دون الجزم بوجودها على وجه اليقين، أو الجزم بنفيها على وجه اليقين، وبخاصة أن الأثر الخارجي على الوجوه والتصرفات قد يشترك بين مؤثرات مختلفة كثيرة.

ومن هنا لا يمكن التعويل والاعتماد على دعاوى البشر في هذا الشأن، فلم يبق إلا كلام الخالق سبحانه الذي أخبر عن ذلك، كما في قوله تبارك وتعالى: {أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا

---

١ تفسير القرطبي

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ}[1]، وقوله عز من قائل: {أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[2].

والمعنى أنهم لا يستوون، ولا يجب أن يغتر الإنسان بالصورة الخارجية لإنسان ما أو جماعة ما، فليست ـ بالضرورة ـ دليلا على اطمئنان القلب أو سكينة النفس، وصلاح البال، مهما ظهر من غناهم أو قوتهم وسلطانهم أو غير ذلك من متاع الدنيا.

ولكم سمعنا عن بعض أهل الترف والنعيم أنهم يصلون إلى درجة يفقدون فيها القدرة على استشعار أي متعة فيما بين أيديهم، إلى درجة أنهم يفقدون الرغبة في الحياة ويقبل بعضهم على الانتحار يأسا من الدنيا.

ونحن لا نقيم الحجة هنا بمثل هذه الأخبار ولكنها صورة فقط نقرب بها المعنى إلى الأذهان وأما الحجة فهي فيما أخبر به الحق سبحانه، وليس سواه.

كذلك فإن التقصير في الأخذ بالأسباب التي تيسر حياة أهل الطاعة يترتب عليه القلق وعدم راحة البال، وهذا بسبب التقصير وليس بسبب العبادة، ولهذا يجب أن يفصل تماما بين هذا وذاك، لأنه لو ترتب راحة البال مع التقصير في الأخذ بالأسباب التي أقامها الله تعالى كوسائل لتحصيل

---

١ سورة السجدة: ١٨ – ٢٠.

٢ سورة الزمر: ٢٢.

المطلوب لأدى هذا إلى أن يصبح أهل الطاعة عالة على أهل المعصية، وهو ما لا يحبه الله تعالى ولا يرضاه، ولهذا لا يمكن أن يعين عليه، أو يساعد أهل طاعته على الاستمرار فيه بأن يصلح بالهم ويطمئن قلوبهم مع ما هم فيه من تقصير وإهمال.

وبالمقابل فإن كل من اجتهد من أهل الطاعة، واستعان على ما يريد بالأخذ بالوسائل والأسباب التي شرعها الله تعالى، وأقام عليها نظام الكون، فإنه في كل الأحوال سينعم بما وعد الله به من راحة البال، وطمأنينة القلب، وسكينة النفس، حتى ولو لم يحصل من متع الدنيا إلا على أقل القليل، وهذه هي ثمرة العبادة التي لا يظفر بها إلا أهل الطاعة.

☜ **الوجه الثاني:**

وفي هذا الوجه نلمس من الحجج ما يساعد كثيرا على التسليم والقناعة بكل ما أخبر به الحق سبحانه، حتى ولو غاب الوجه المادي عن إدراكنا، فسيبقي اليقين قائما على وجوده كثمرة للعبودية والعبادة الحق كما أخبر سبحانه.

وتتمثل هذه الحجة في قوله تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا}[1].

وأول ما يلفت النظر في هذه الآية الكريمة أن الطرفين غير متماثلين، فطرف المؤمنين الذي استحقوا هذا الوصف بسبب عبوديتهم وعبادتهم، كانت الثمرة فيه هي الشفاء والرحمة، فهما نعمتان جليلتان عظيمتان وليست نعمة واحدة.

---

١ سورة الإسراء: ٨٢.

بينما الطرف الآخر، وهم أهل المعصية فقد تمثل في الخسران والعياذ بالله، وهو الوصف الذي يمحق كل خير ويمحو أي بركة، ونعوذ بالله من ذلك، ويمكن أن يقال إن هذا الوعيد مقصود به الآخرة خاصة، وليس بالضرورة أن يكون في الدنيا، ونستطيع أن نقول إن هذا الجزاء هو الذي يقابل الرحمة عند أهل الطاعة، والتي تنجلي عن كل آلائها في الآخرة خاصة.

ومن هنا نستطيع أن نقول إن الحرص على قراءة القرآن الكريم والاستماع له، والعمل به، وهي عبادة من العبادات ثمرتها رحمة ونعيما ورضوانا في الآخرة، بينما أهل العناء والضلال الذين تحجرت قلوبهم عن التأثر به، فمآلهم إلى النقمة والجحيم والعياذ بالله.

ولكن بالنظر إلى قوله تعالى: "وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ"، فإننا نستطيع أن نجزم أن هذا ليس مقصودا به الآخرة، لأن الرحمة التي يتنعم بها أهل الجنة تشمل كل ما يصبون إليه ويتمنونه، ولهذا فهي تتضمن الشفاء من كل سقم أو عناء، يقينا.

وهكذا يصبح الشفاء مقصودا به الدنيا، بمعنى أن يكون القرآن الكريم شفاء من أوجاع وأسقام الدنيا، وكل هذا من ثمرات العبودية والعبادة، في الدنيا، والتي يلمسها كل المنصفين وغير المكابرين المعاندين.

وهكذا وجدنا الرقية الشرعية ـ على سبيل المثال ـ يتداوى بها الناس من كثير من الأوجاع، والتي جزم بحقيقتها ـ في هذا الشأن ـ عدد من الخلق كثير على مر الأجيال والعصور.

وقد أقام أهل الكفر أنفسهم التجارب على الإنسان والحيوان والنبات، بل والماء أيضا، ووجدوا أن للقرآن الكريم تأثيرا لا يمكن إنكاره على كل الأشياء التي قريء عليها، ولها.

وهذا في ذاته من الحجج والبراهين التي تثبت لكل باحث عن الحق، أن كل خبر جاء به القرآن الكريم هو حق وصدق لا جدال فيه.

وهكذا نتأكد أن الخالق سبحانه وتعالى هو وحده لا شريك له الذي يستحق أن يعبد وندين له بالعبودية والعبادة لأنه وحده لا شريك له، مالك كل شيء ومليكه، دون سواه، ولهذا فهو الذي نتوجه إليه بالعبودية والعبادة.

كذلك فهو العظيم بحق جل جلاله الذي لا ينازعه مخلوق في ملكوته وسلطانه، ولهذا ندين له بالعبودية والعبادة على الوجه الذي أمر دون أن نزيد شيئا أو ننقص، تعظيما لشأنه وإجلالا لسلطانه، سبحانه وتعالى.

على قدر اليقين تكون الإجابة

على قدر اليقين تكون الإجابة

كان رسول الله ﷺ يدعو لأصحابه في المجالس، ومن هذا الدعاء: «وَمِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا» [1]، ويا له من دعاء، له في النفوس فعل البلسم، الذي يرفع المعاناة والألم، بغير دواء ولا طبيب.

وكم من عليل حار الحكماء في علته ودائه ولكن كان الدعاء هو سلوته ورجاؤه، وكيف لا وقد قال الخالق جل في علاه: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا} [2].

كيف يكون القرآن شفاء، وليس شرابا يشرب، ولا دواء يؤخذ بالفم أو الحقن؟ إنه خبر الخالق سبحانه الذي يعلم صنعته حق اليقين، والذي أخبر عن ذلك، فلم لا يلمس الناس هذا الشفاء، ولا ينتفعون بهذا الداوء، بل دعاؤهم وذكرهم لا أثر له ولا نتيجة.

نعم إنه ليس كأدوية الدنيا التي يستوي الناس جميعا في تأثرهم بها، ولا يختلف أمرها من صالح إلى فاسد، بل الجميع بالنسبة إليها سواء.

بينما في هذا الشفاء الرباني يختلف الأمر ويتفاوت الناس تفاوتا من النقيض إلى النقيض، فبينما يكون شفاء ورحمة بالنسبة لأهل الإيمان، يكون هو نفسه بالنسبة لأهل الباطل سببا في زيادة الداء، والعود بالخسران.

---

١ سنن الترمذي.

٢ سورة الإسراء: ٨٢.

ولولا أن أهل الحق يؤمنون إيمانا راسخا بأن خبره ﷻ هو الحق اليقين لما التفت أحد إلى شيء لا تدركه حواسه إحساسا ماديا كاللمس والذوق.

ومن هنا كان معنى طلب اليقين من الله تعالى الذي دعا به رسول الله ﷺ، إنه الصلة التي تجمع بين المعنوي والمادي ليكونا كشيء واحد، كما الجسد والروح، ولولا اليقين لما كان لأمر غيبي أي موضع من نفس إنسان وعقله.

ولولا غفلة الناس لكان لهم في الموت واعظ لا يخطيء، لأن الموت ما هو إلا سلب الروح من الجسد، فلا ينفع الجسد بعد خروج الروح شيء، مع أن الجسد هو هو لم يختلف، ولكن الذي اختلف هو خروج الروح، وإذا كان الجسد هو كل ما يتعامل معه أهل الدنيا، فإن الروح سر من أسرار الخالق سبحانه، وامتزاج الروح بالجسد يغير من خواص الجسد المادية، تغييرا لا يمكن للخلق أن يصلوا إلى حقيقته الكاملة، كما هو ملاحظ وملموس على مر الأزمان والعصور، فلم يمنع الطب موتا، ولم يرجع الدواء المشيب شابا.

ولهذا كان الموت هو اليقين الذي لا يغيب عن أهل الدنيا قط، ومع هذا لم ينتفعوا بهذا الإدراك لأنه بقدر ما هو يقين في نفسه، إلا أنهم أخفقوا في أن يجعلوه يقينا في أنفسهم، ولو استيقنوه حق التيقن لما غاب عنهم اليقين في أمر قط، هكذا هو الإنسان سرعان ما ينسى وقل أن يتدبر.

وبقدر اليقين الذي يتمكن من النفس لا يرجع من توجه إلى الله تعالى بالدعاء صفر اليدين أبدا، بل الدعاء ينفعه إما عاجلا أو آجلا.

وبقدر اليقين تكون الإجابة، فكما يتفاوت أهل الطاعات بقدر طاعتهم، كذلك تتفاوت مراتبهم، بقدر ما تحمل الطاعة من يقين.

لأن اليقين هو العلم الذي لا شك فيه، وهو سكون النفس واطمئنانها إلى الأمر، ليكون صلبا قويا في القلب، وأعماق النفس.

واليقين على مراتب، تبدأ بالعلم، أي علم اليقين، والذي يكون عن طريق الخبر والسماع، وتليه مرحلة المعاينة، والتي تتحقق بالرؤية بالعين، أي عين اليقين، وأعلاها مرتبة حق اليقين وهي المرتبة التي يجتمع فيها علم اليقين وعين اليقين مع المباشرة بالحواس المختلفة كاللمس وغيره.

☜ **وجاء ذكر المراتب الثلاث** في كتاب الله تعالى، كما في قوله ﷻ: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}[1].

☜ **والمرتبتان الأخريان** كما في قوله تبارك وتعالى: {كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ}[2].

☜ وذكر هذه المراتب في كتاب الله تعالى يدل على كونها من حقائق الحياة، التي يلمسها الناس، ولكن لابد من إعداد وتهيئة للوصول إليها.

📖 **ومن روائع الإمام ابن القيم ما يبين سبل الوصول إلى هذه المراتب المختلفة بقوله**: (وَأما القائمون لله بحجته خلفاء نبيه فِي أمته فإنهم لكَمَال علمهمْ وقوته نفد بهم إلى حَقِيقَة الأمر، وهجم بهم عَلَيْهِ فعاينوا ببصائرهم مَا عشيت عَنهُ بصائر الْجَاهِلين، فاطمأنت قُلُوبهم بِهِ، وَعمِلُوا على الْوُصُول إليه، لما بَاشَرَهَا من روح الْيَقِين رفع لَهُم عَلَمَ السَّعَادَة فشمروا إليه،

---

١ سورة الواقعة: الآيتان ٩٥، ٩٦.

٢ سورة التكاثر: الآيات ٥ : ٧.

وأسمعهم مُنَادِي الإيمان النداء، فاستبقوا إليه، واستيقنت أنفسهم مَا وعدهم بِهِ رَبهم، فزهدوا فِيمَا سواهُ، وَرَغبُوا فِيمَا لَدَيْهِ، علمُوا أن الدُّنْيَا دَار ممر لَا دَار مقرّ، ومنزل عبور لَا مقْعد حبور، وأنها خيال طيف، أَوْ سَحَابَة صيف، وأن من فِيهَا كراكب قَالَ تَحت ظلّ شَجَرَة ثمَّ رَاح عَنْهَا وَتركهَا، وتيقنوا أنها أحلام نوم أوْ كظل زائل: أن اللبيب بِمِثْلِهَا لَا يخدع ...)[1].

📖وكلام **الإمام ابن القيم** يبين القاعدة التي يرتكز عليها أهل العزائم للوصول إلى درجات اليقين، وهو أحرى بالوصول إليها من غيرهم، لأنهم مؤيدون بتوفيق الله تعالى وإعانته، وكما يقول الإمام ابن القيم كذلك: (وَهَذَا كُله من ثَمَرَات الْيَقِين فإن الْقلب إِذا استيقن مَا أمامه من كَرَامَة الله، وَمَا أعد لأوليائه بِحَيْثُ كَأَنَّهُ ينظر إليه من وَرَاء حجاب الدُّنْيَا وَيعلم أنه إِذا زَالَ الْحجاب رأى ذَلِك عيَانًا، زَالَت عَنهُ الوحشة الَّتِي يجدهَا المتخلفون، ولان لَهُ مَا استوعره المترفون، وَهَذِه الْمرتبَة هِيَ أول مَرَاتِب الْيَقِين وَهِي علمه وتيقنه وَهِي الْكَشَّاف الْمَعْلُوم للقلب بِحَيْثُ يُشَاهِدهُ وَلَا يشك فِيهِ كانكشاف المرئي لِلْبَصَرِ.

☜**ثمَّ يَليهَا الْمرتبَة الثانِيَة** وَهِي مرتبَة عين الْيَقِين ونسبتها إلى الْعين كنسبة الأول إلى الْقلب.

☜**ثمَّ تَليهَا الْمرتبَة الثالِثة** وَهِي حق الْيَقِين وَهِي مُبَاشرَة الْمَعْلُوم وإدراكه الإدراك التَّام)[2].

---

١ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة.

٢ المرجع السابق.

ويضرب مثالا لتقريب المعنى فيقول: (فالأولى كعلمك بَأن فِي هَذَا الْوَادي مَاء وَالثَّانِي كرؤيته وَالثَّالِثَة كالشرب مِنْهُ)[1].

ومثل الإنسان بالنسبة لهذه المراتب كمثل الطفل الذي مازال يستطلع الأشياء ولا يدركها، فإذا ما أخبرته أن النار حارقة، فإنه يتلقى الخبر بالتسليم لأنه يتلقاه من القائم على هدايته وتعليمه، ولكنه لا يمكنه استيعاب المعنى على الوجه الصحيح بمجرد سماع الخبر، فهذه مرتبة علم اليقين، ثم إذا أشعلت النار وأحرقت بها ورقة مثلا ورآها الطفل بعينه فإنه ينتقل إلى مرحلة المعاينة بالعين، وهي تزيد المعنى لديه وضوحا وفهما، فهذه هي مرحلة عين اليقين.

وهذه المرحلة وتلك لن تجعله قادرا على إدراك حرارة اللهب وأثر الحريق، ولهذا فأنت تقربها من يده قليلا قليلا حتى إذا ما سحب يده سريعا أدرك المعنى من كون النار حارقة على وجه لا شك فيه ولا لبس، وهذه هي مرحلة حق اليقين، وهكذا ينشأ الأطفال بالنسبة لإدراكهم ماديات البيئة التي يعيشون فيها.

ونظرا لأن هذا المثال يقوم على الإدراك المادي المحسوس فهو سهل ميسور لا يكابر فيه عاقل، وأما بالنسبة للأمور الغيبية فالأمر يختلف حيث من الصعب تجسيد هذه المراتب وكأنها ملموسة مشاهدة، إلا بترويض النفس وإعدادها إعدادا إيمانيا خالصا، لتتمكن من الوصول إلى هذه المراتب، وبخاصة مرتبة حق اليقن، والتي يتوقف عليها التصديق والإذعان والتسليم الكامل لكل ما جاء به الشرع الحنيف.

---

١ نفس المرجع.

يقول **الإمام القرطبي**: (وَقَالَ قَتَادَةُ فِي تفسير قوله تعالى {إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ}[1]: إِنَّ اللهَ لَيْسَ بِتَارِكٍ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ حَتَّى يَقِفَهُ عَلَى الْيَقِينِ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَأَيْقَنَ فِي الدُّنْيَا فَنَفَعَهُ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَأَيْقَنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ لَا يَنْفَعُهُ الْيَقِينُ)[2].

فكأن يقين المؤمن بصدق ما جاء به الرسول ﷺ هو السبيل الموصل إلى رضى الله جل في علاه وهو المفتاح لدخول الجنة ونعيمها بفضل الله ومنه وكرمه.

إن اليقين هو الذي يكسب الألفاظ روحا وحياة، ولولاه لما أمكن لأحد أن ينفذ إلى الغيب ليحسه ويستشعره، ولكنه اليقين الذي يحقق للمؤمن ما تحققه التجربة للطفل.

ولقد انشغل الناس ـ إلا من رحم الله ـ بحياتهم الدنيا، انشغالا حجب عنهم القدرة على استشعار حقائق الغيب ومعاني الإيمان الحق، حتى أصبحت عباداتهم يغلب عليها الشكل، والذي يخلو في معظمه من المضمون الحقيقي، الذي من أجله شرعت العبادات المختلفة، ألا وهو تحقيق العبودية الحق لله رب العالمين.

وفارق كبير بين من استشعر حقيقة العبادة، وبين من أداها دون وعي أو إدراك، كمن يقف في الصف في صلاة الجماعة ـ على سبيل المثال ـ فينشغل بتسوية الصف على وجه صحيح، وكذا ملامسة من على اليمين ومن على اليسار لمسا خفيفا، حتى لا يترك فرجة للشيطان، وكل هذا مطلوب ولازم،

---

١ سورة الواقعة: ٩٥.

٢ تفسير القرطبي.

ولكنه ليس مطلوبا لذاته بل هو مطلوب لأن الخالق أمر به، ولو لم يأمر به لما فعله الناس، لأنه لا يترتب عليه فائدة لذاته، بل المطلوب لذاته هو تحقيق العبودية للخالق سبحانه على وجه صحيح، والذي لو تحقق في الصلاة لأمكن تحققه في كل شيء، في كل مناحي الحياة، فإله الصلاة الذي يتوجه إليه المصلون بالعبادة، هو رب كل شيء وصاحب كل الأوامر والنواهي التي تتناول سائر حياة الناس.

فعندما نقول إن الصلاة تزكية للنفس وارتقاء بها عن دنايا الدنيا، فإنما نقصد حقيقة الصلاة وليس مجرد الشكل والصورة، حقيقة الصلاة التي ترسخ في قلوب المصلين مفهوم العبودية الحق، والذي يظهر ويتحقق في حركة المصلين خارج الصلاة وخارج المسجد.

ولهذا لم ينتفع كثير من المصلين بالصلاة، ولم يحصلوا منها ثمرة، غير أنهم لا يطالبون بقضائها مرة أخرى، {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}[1].

وفي الحديث عن أَبِي هُرَيْرَةَ، ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ، وَرُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ"[2].

فإذا كان شكل العبادة هو القالب الذي يظهر الامتثال والخضوع والذل لأمر الخالق سبحانه، فإن حقيقة العبادة تعتمد على الإخلاص واليقين في أن صاحب العبادة الآمر بها هو الذي يستحق أن يتعلق به القلب ويتوجه إليه، وليس العبادة في ذاتها.

---

١ سورة العنكبوت: ٤٥.

٢ مسند أحمد، وقال الألباني صحيح.

إن العبادة الحقيقية الخالصة لوجه الله تعالى هي التي تنمي اليقين في القلب وتنزل السكينة على النفس، وبقدر اليقين يزداد تعلق العبد بربه ومولاه فيعينه ذلك على أداء العبادة على الوجه الذي يحبه الله ويرضاه.

فاليقين والعبادة الحقيقية يساعد كل منهما الآخر فيرتقيان معا، ويترديان معا، {وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى}[1].

فالإنسان غير قادر بنفسه على الوصول إلى اليقين الذي يرفعه عند الله تعالى، إلا بعون الله تعالى وتوفيقه، فكأنه العبد الذي يمتثل بالطاعة يكافئه الخالق سبحانه بأن يرفعه إلى ما لا قدرة له على إدراكه بنفسه.

وفي الحديث عن أَبِي هُرَيْرَةَ، ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ"[2].

ولن يفوز المرء بحب الله تعالى إلا باليقين والطاعة، يمتزجان وينصهران في قلب المؤمن ونفسه، لتصبح دنياه التي يحياها غير دنيا الناس، وكأنها أصبحت بلسما وراحة، مهما اعتراها من عناء وتعب، وكيف لا وهي حياة في معية الخالق سبحانه، جل في علاه.

---

١ سورة مريم: ٧٦.

٢ صحيح البخاري.

ولكن مع الانشغال والاستغراق في متاعب الدنيا، وأمورها المادية اهتزت ثقة الناس في الحقائق الغيبية التي أخبر عنها الشرع، وبات من الصعب تصديقهم بها، حتى وإن لم ينكروها بألسنتهم، حتى وإن مارسوها بأجسادهم، فإنها في حقيقتها كالجسد بغير روح.

وهكذا فقد أكثر المسلمين معية الخالق سبحانه، وأصبح توجههم إليه بالدعاء بعيدا كل البعد عن الاستجابة، وحل محل الاستجابة القلق والاضطراب، دون أن يدري الناس أن السبب يرجع إليهم أنفسهم وليس إلى تخلي الخالق عنهم، جل في علاه.

وأصبح الدعاء الذي هو مخ العبادة خاليا من اليقين، وأصبح مجرد ألفاظ يرددها اللسان، دون استحضار المعنى الحقيقي للدعاء، وأنه عبادة لا تتوقف على وقت، بل هو العبادة التي يتقرب بها الناس إلى خالقهم في كل وقت.

وهكذا تتنوع العبادات ويتغير شكلها، ولكنها تجتمع جميعا على شيء واحد، ألا وهو الإقرار بالعبودية لله رب العالمين، ولأن الله يأبى أن يكون له ند أو شريك يتعلق به الناس، كان الدعاء هو العبادة التي لا عذر لأحد فيها ولا رخصة، بل هو العبادة التي يقدر عليها كل مخلوق مهما كان حاله.

ولو امتزج الدعاء في نفوس أهل الإيمان وقلوبهم باليقين الذي يجعل قلوب الضارعين المتذللين متعلقا بالخالق وحده سبحانه، دون أي مخلوق من مخلوقاته، مهما كان جاهه وسلطانه، لأثمر الثمرة التي يرجوها العابدون المخلصون، ألا وهي الاستجابة التي يحبون، {وَقَالَ رَبُّكُمُ

ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}[1].

ولهذا كان الوعيد الرهيب بنار جهنم، لمن تأبى على صاحب العبادة الآمر بها سبحانه، فلم يرضخ له بالإذعان والدعاء، بل ركن إلى الأسباب والقائمين عليها، لأن اليقين لديه ارتبط بكل ملموس محسوس فقط.

ولعل قسوة القلوب هي التي أدت إلى أن كثيرين من أهل الطاعة ـ أيضا ـ فقدوا اليقين، فعجزوا عن استحضار الغيب الذي أخبر عنه الشرع، وكأنه ليس موجودا، فتنافسوا الدنيا بكل ما فيها، وفي زحمة التنافس، نسوا الآخرة وما تتطلبة من كد وتعب.

ومن أجل هذا كانت الحاجة إلى التنبيه والتذكير ملحة وشديدة، لعل بابا من أبواب الرحمة يفتح، فيلج منه أهل الحق والإيمان، ويطّلعوا على ما خفي عنهم، مما يعينهم على مغالبة شهوات النفس، ويرفعهم إلى مراتب أهل الصلاح والرضوان.

وأولى خطوات هذا الطريق، أي طريق الوصول إلى أبواب الرحمة المتعددة، أن يستقر في القلب الإيمان واليقين بأن الغيب حق، ومع تمكن اليقين في القلب والإلحاح في الوقوف على أبواب القبول، فسوف تتنزل رحمات الله تعالى التي وعد بها أهل طاعته، مصداقا لحديث أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَقُولُ اللهُ ﷻ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»[2].

---

١ سورة غافر: ٦٠.

٢ أخرجه الإمامان البخاري ومسلم، وغيرهما.

وفي الحديث ـ أيضا: «ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ»[1].

لأن الدعاء هو الوسيلة التي يخاطب بها العبد مولاه، وباليقين في الاجابة يمتزج الجانب المادي الملموس وهو الدعاء مع الجانب القلبي المعنوي وهو اليقين، وبقدر تواصل الدعاء وتكراره على كل الحالات، والمواظبة على الطاعة والعبادة، يتسلل اليقين رويدا رويدا إلى النفس حتى يتمكن منها، وكأنه سجية من سجاياها.

فاليقين في الدعاء هو حالة يستقر فيها الأمر الغيبي في القلب والوجدان وكأنه معاين ملموس، والوصول إليه ليس سهلا ميسورا، بل يحتاج إلى مجاهدة وتدريب، فعندما سأل جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ عن الإحسان قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[2]، ولأن الإحسان هو أعلى درجات الإيمان فإنه لا يتحقق إلا باليقين، اليقين في وجود الخالق واعتقاد ألوهيته وربوبيته على وجه الحقيقة، وكأنك ترى بعينيك، لأن الإيمان الحق واليقين القاطع أن الله تعالى يراك حيثما كنت.

وهذا الحديث يؤكد على أن ارتقاء الإنسان في مراتب الإيمان يتوقف على قدر اليقين، أو مرتبة اليقين التي اطمأن بها قلبه، وعند مرتبة حق اليقين تصبح تكاليف العبادة مهما بلغت سهلة ميسورة، لما يعاينه الإنسان ويستشعره من جنة ونار، ونعيم وجحيم، إن لم يكن بعينه فهو يعاينه بقلبه ويستشعره بجوارحه، وتصبح العبودية لله الخالق سبحانه متعة وراحة،

١ سنن الترمذي، وقال الألباني: صحيح.

٢ أخرجه الإمامان البخاري ومسلم، وغيرهما.

يتمنى صاحبها أن تدوم ولا تنقطع، وتصبح الحياة ثمينة بقدر ما تحمله من طاعة وعبادة.

فقد خلق الله الإنسان لهدف وغاية محددة، ألا وهي تحقيق العبودية له سبحانه، والإقرار بالعبودية في كل ما تجري به الحياة، هذه الحياة التي أقتها الخالق سبحانه لأجل معدود، ثم تنتهي لا محالة، فما هي إلا معبر إلى الآخرة التي هي دار الخلود.

وكل ماهو متناهي مهما طالت مدته فقدْره إذا ما قورن باللامتناه لا قيمة له، والمعنى أن عمر الإنسان في الحياة الدنيا مهما بلغ فإنه إذا ما قيس بالآخرة لا يمثل أكثر مما تمثله القطرة مقارنة بالبحر المحيط، أو أقل، والله أعلم.

ولأن تنمية اليقين في النفس المؤمنة ينبع في الأصل من تحقيق مفهوم العبودية على الوجه الصحيح، بحيث يخرج المؤمن من رتابة الشكل إلى جوهر المضمون الحق، الذي تحتوية كل عبادة يؤديها طاعة لله تعالى، {فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}[1].

يقول الإمام الطبري: (فَالْزَمْ طَاعَتَهُ، وَذِلَّ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ {وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ}، يَقُولُ: وَاصْبِرْ نَفْسَكَ عَلَى النُّفُوذِ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَالْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ، تَفُزْ بِرِضَاهُ عَنْكَ، فَإِنَّهُ الْإِلَهُ الَّذِي لَا مِثْلَ لَهُ وَلَا عَدْلَ وَلَا شَبِيهَ فِي جُودِهِ وَكَرَمِهِ وَفَضْلِهِ، {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} يَقُولُ: هَلْ تَعْلَمُ يَا مُحَمَّدُ لِرَبِّكَ هَذَا الَّذِي أَمَرْنَاكَ

١ سورة مريم: ٦٥.

بِعِبَادَتِهِ، وَالصَّبْرِ عَلَى طَاعَتِهِ مِثْلًا فِي كَرَمِهِ وَجُودِهِ، فَتَعْبُدُهُ رَجَاءَ فَضْلِهِ وَطَوْلِهِ دُونَهُ؟ كَلَّا، مَا ذَلِكَ بِمَوْجُودٍ)[1].

وكذلك كان القصص القرآني أحد أهم وسائل تنمية اليقين، وبث الطمأنينة في نفوس المؤمنين، هذا القصص الذي يأخذ ألوانا متعددة ليناسب كل خفايا النفوس المختلفة والمتباينة، وسوف نشير إلى هذا المعنى في عجالة سريعة، لنبين كيف تكون الإجابة من الخالق سبحانه متوافقة مع يقين العبد فيه جل في علاه.

الإشارة الأولى:

قصة سيدنا يعقوب عليه السلام: {وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاأَسَفَا عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ قَالُوا تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[2].

إن من أهم ما يلفت النظر في هذه القصة أن أسباب عودة سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ لم يصبح لها وجود وبخاصة بعد هذه الفترة الطويلة التي انقضت منذ أن ألقي به في غيابة الجب، ومع هذا لم ييأس سيدنا يعقوب عليه السلام، حتى ظنوا بعقله الظنون.

ولكنه اليقين في الخالق سبحانه الذي يغنيه عن كل أسباب الدنيا، فكانت الإجابة متمثلة في تحقق ما كان مستحيلا أو شبه مستحيل، حيث عاد إليه

---

١ تفسير الطبري.

٢ سورة يوسف: ٨٤ – ٨٦.

سيدنا يوسف بعد أن انقطع كل أمل في عودته، وكيف لا وقد ألقي في الجب صغيرا، وأدخل السجن كبيرا، دون أن يعلم الأب مصيره ومنتهاه.

ولكن الله لا تعوزه الأسباب، بل إذا أراد شيئا هيأ له من الأسباب ما يشاء، حتى ولو لم تكن لهذه الأسباب علاقة في الأصل بما هو مطلوب، فقط هو اليقين في رب الأسباب.

📖 **الإشارة الثانية:**

قصة سيدنا أيوب عليه السلام: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}[1].

☜ **يقول أهل التفسير:** (اعْلَمْ أَنَّ فِي أَمْرِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا ذَكَرَهُ الله تَعَالَى مِنْ شَأْنِهِ هَاهُنَا وَفِي غَيْرِهِ مِنَ الْقُرْآنِ مِنَ الْعِبَرِ وَالدَّلَائِلِ مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهِ، لِأَنَّهُ تَعَالَى مَعَ عَظِيمِ فَضْلِهِ أَنْزَلَ بِهِ مِنَ الْمَرَضِ الْعَظِيمِ ما أنزله مما كان عبرة لَهُ وَلِغَيْرِهِ وَلِسَائِرِ مَنْ سَمِعَ بِذَلِكَ وَتَعْرِيفًا لَهُمْ أَنَّ الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الْآخِرَةِ، وَأَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى مَا يَنَالُهُ مِنَ الْبَلَاءِ فِيهَا، وَيَجْتَهِدَ فِي الْقِيَامِ بِحَقِّ الله تَعَالَى وَيَصْبِرَ عَلَى حَالَتَيِ الضَّرَّاءِ وَالسَّرَّاءِ)[2].

(وَكَانَ الله تَعَالَى قَدِ اصْطَفَاهُ وَجَعَلَهُ نَبِيًّا، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ قَدْ أَعْطَاهُ مِنَ الدُّنْيَا حَظًّا وَافِرًا مِنَ النِّعَمِ وَالدَّوَابِّ وَالْبَسَاتِينِ وَأَعْطَاهُ أَهْلًا وَوَلَدًا مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ)[3].

---

١ سورة الأنبياء: ٨٣، ٨٤.

٢ تفسير الرازي، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير.

٣ المرجع السابق.

(فَابْتَلَاهُ اللهُ بِذَهَابِ وَلَدِهِ ـ انْهَدَمَ عَلَيْهِمُ الْبَيْتُ فَهَلَكُوا ـ وَبِذَهَابِ مَالِهِ وَبِالْمَرَضِ فِي بَدَنِهِ ثَمَانَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَقِيلَ دُونَ ذَلِكَ فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ يَوْمًا لَوْ دَعَوْتَ اللهَ فَقَالَ لَهَا: كَمْ كَانَتْ مُدَّةُ الرَّخَاءِ؟ فَقَالَتْ: ثَمَانِينَ سَنَةً، فَقَالَ: أَنَا أَسْتَحِي مِنَ اللهِ أَنْ أَدْعُوَهُ وَمَا بَلَغَتْ مُدَّةُ بَلَائِي مُدَّةَ رَخَائِي، فَلَمَّا كَشَفَ اللهُ عَنْهُ رد إليه وَلَدَهُ وَرَزَقَهُ مِثْلَهُمْ وَنَوَافِلَ مِنْهُمْ)[1].

نتوقف أمام هذا الثبات واليقين الذي تصوره الآية الكريمة: "أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ"، فلم يكن الجزع ولا الشك والقلق، بل كان الثبات واليقين على الرغم من هول ما أصابه من بلاء، بل كان دعاؤه متمثلا في اليقين بربه سبحانه، حيث يقول: "وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ".

هذا هو المغزى الذي من أجله نسوق هذه القصة إنه الثبات واليقين والذي ترتب عليه الاستجابة، بما يمحو عنه أثر كل بلاء أو عناء سابق.

إن تناول القصة على أنها حكاية مجردة يفقدها الهدف الذي سيقت من أجله، ولهذا كان من اللازم أن نتدبر هذا القصص القرآني ليلتقط القلب منه العبرة والعظة التي تنمي اليقين في النفس وترسخه في القلب.

أما الإشارة الثالثة:

فتتلخص في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام حين ترك وليده مع أمه عليهما السلام، في هذا المكان الذي لا يصلح للحياة، ولكنه ﷺ، كان على أعلى درجات اليقين في ربه تبارك وتعالى، ومن كان هذا حاله لا يخشى شيئا، لأنه لا يركن إلى الأسباب ولكن إلى رب الأسباب.

---

١ البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان محمد بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي.

يقول تعالى: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}[1].

وفي الحديث الصحيح عن ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ المِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ البَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ، فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى المَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الوَادِي، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلاَ شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لاَ يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لاَ يَرَوْنَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ البَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلاَءِ الكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: رَبِّ {إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ} حَتَّى بَلَغَ -{يَشْكُرُونَ}. القصة»[2].

هذا الوادي الذي لا زرع فيه ولا ماء، أصبح البقعة الوحيدة التي لا شبيه لها على وجه الأرض، والتي لا تنقطع عنها الحياة لحظة واحدة من ليل أو نهار.

---

١ سورة إبراهيم: ٣٧.

٢ صحيح البخاري.

إن هذا القصص القرآني ليس مرادا به بيان حال الأنبياء صلوات الله عليهم في تحقيق مفهوم العبودية لله رب العالمين، فإن الله تعالى هو الذي اصطفاهم، وهو أعلم بهم، ولو كان هذا هو المراد، لأغنت قصة واحدة عن باقي القصص، ولهذا كان من المحتم أن نفهم المغزى من هذا القصص القرآني العظيم بما يحقق العبرة والعظة، وأيضا بما يظهر ما تحمله كل قصة من معنى زائد عن القصة الأخرى.

وإذا نظرنا إلى هذه القصة من هذا المنظور ـ بعيدا عن منظور ابتلاء الأنبياء ـ لنستخلص منها العبرة والعظة، امتثالا لقوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[1]، فسوف نلمح بوضوح هذا المعنى الذي يتلخص في اليقين، وهو المعنى الذي يحقق العبرة والعظة بمعنى أن هذه القصة كما في سابقتيها تبين أن مفاتيح الفرج والإجابة هي ثمرة اليقين بالله تعالى، والذي ينمو ويترسخ بطاعة الله تعالى، وتحقيق العبودية خالصة لوجهه جل وعلا.

ومما يجب التنبه له أن اليقين في الله تعالى يولّد الرضا بما قسم، والاطمئنان لما يجريه من مقادير سبحانه، وبهذا لا تتوقف الإجابة على النواحي المادية الملموسة، بل قد تكون الإجابة متمثلة في ثمرة تعجز عنها ماديات الدنيا بأكملها، ألا وهي حالة السلام النفسي الذي يكون عليه المؤمن الحق، تصديقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ

١ سورة يوسف: ١١١.

أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}[1]، (أَيْ تَطِيبُ وَتَرْكَنُ إلى جَانِبِ اللهِ، وَتَسْكُنُ عِنْدَ ذِكْرِهِ، وَتَرْضَى بِهِ مَوْلًى وَنَصِيرًا)[2]، وياله من ثمرة، وياله من توفيق.

١ سورة الرعد: ٢٨.

٢ تفسير ابن كثير.

الابتلاء
ونسائم الرحمة في ثناياه

الابتلاء
ونسائم الرحمة في ثناياه

الابتلاء فِي الأَصْل هو التَّكْلِيف بِالْأَمر الشاق، والمشقة لها ألوان متعددة، ولا تقتصر فقط على ما يكره الناس من البلاء والمصيبة، بل قد تكمن في محبوب لديهم، حيث يكون المال والولد، ـ أحيانا ـ سببا في طغيانه وتجبره، بدلا من الحمد والشكر، قال تعالى: {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً}[1].

ولأن الله اختص البشر بأمانة التكليف، والذي يمثل السبيل إلى تحقيق أعلى مراتب العبودية التي يحبها الخالق سبحانه، من أجل ذلك كان تكريمهم وتفضيلهم على كثير من خلقه جل شأنه.

ولأن الابتلاء لا يكون على وجه واحد بل تتعدد صوره إلى ما لا نهاية، أهلهم سبحانه بملكات تساعدهم على مواجهة البلاء بما يناسبه، وكم تحوي النفس البشرية من مواهب وملكات، لا زالت يوما بعد يوم تظهر الجديد، وصدق الله إذ يقول: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[2].

ولحكمة أرادها المولى جل جلاله، كانت النفس البشرية خلقا معجزا تجلت فيه عظمته سبحانه، ليظل الإنسان نفسه دليلا على وجود الخالق وتفرده سبحانه بالخلق والإماتة، {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}[3]، فقد حوى الجسد البشري من آيات الإعجاز ما لا حصر له.

---

[1] سورة الأنبياء: ٣٥.

[2] سورة التين: ٤.

[3] سورة الذاريات: ٢١.

ومن أوجه الإعجاز هذا التفاوت الهائل بين طباع البشر، وكذا اختلاف مآربهم، وتعدد مواهبهم، مع أن جسد الجميع واحد، ومع هذا تحداهم الخالق جل في علاه بهذا الجسد، أنهم مهما بلغوا من مدارك العلوم لن يصلوا إلى خفاياه على وجه الحصر واليقين؟.

وإذا كان الأمر كذلك فإن الإنسان سيظل دائما وأبدا مفتقرا إلى اللجوء إلى الخالق ﷻ، قهرا واضطرارا، أو رغبة واختيارا، لأن خفايا جسده تجبره على ذلك، وبخاصة إذا حار الأطباء، مثلا، في علاج مرض أو تشخيص داء.

ولو نجح أطباء الأرض جميعا ـ مهما اجتمعوا ـ في هزيمة المرض لأمكنهم القضاء على الألم والمعاناة، ولنجحوا في منع الموت، ولكن هذا محال قطعا، وسوف يظل الابتلاء بالمرض والمعاناة والألم تلازم الإنسان مهما تطورت الحياة وارتقت،{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}[1]، فهذا خبر واضح سهل بسيط يلمسه الخلق جميعا، وعلى قدر وضوحه ومعايشته في كل مناحي الحياة، على قدر ما يحمل من دلائل عظمة الخالق سبحانه، وكأنه ـ والله أعلم بمراده ـ يبين أن دلائل استحقاقه للعبودية لا تتوقف على نظر العلماء وأهل الفكر والذكاء، بل كثير من هذه الأدلة في متناول عامة الخلق جميعا، البسيط منهم والذكي، فليس أبسط من شعور الإنسان بالألم، والذي لا يتوقف على شيء بعينه، بل يتنوع في صور لا حصر لها، لينال الخلق منه جميعا نصيبهم، فليس لأحد حصانة من الوقوع تحت تأثير الألم، مهما كانت صفاته وطباعه صلبة قوية.

---

١ سورة البلد: ٤.

ومن عجب أنك لا تستطيع أن تقيس حجم الألم والمعاناة التي يصاب بها الناس إذا تعرضوا لمصاب واحد، بل ستجد التفاوت هائلا إلى درجة أن كثيرا مما يعاني منه البعض لا يكاد يشعر به آخرون، إذا ما تعرضوا لنفس أسبابه، وليس أدل على ذلك من أثر التعرض لصدمة ما على فريق من الناس، لا يكاد يتشابه الأثر على إنسان مع الأثر على إنسان آخر، إنها عظمة الخالق، الذي لا يحصر مراده شيء، ولا يعجزه شيء، وقد تحدى الخلق جميعا أنهم لم ولن يمنعوا الألم أبدا، سواء أكان هذا الألم بسبب مرض أو مصيبة أو غير ذلك، ففي الحديث: "لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ، وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا"[1]، فمهما أمكنهم علاج وجع ما سيظهر لهم وجع جديد لم يكن معلوما من قبل، وهكذا، ليظل الابتلاء الذي قضاه الله على الخلق مستمرا لا طاقة لأحد على الوقاية منه.

إن عجز البشر عن منع الألم الذي يتعرضون له، سببه أنه سيظل شيئا خفيا مجهولا على الرغم من إصابة كل الخلق به، {يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ}[2].

وكم من مترف منعّم عانى عناء شديدا بسبب عجزه عن استشعار البهجة أو الفرح في موطن ما، أو العجز عن استشعار كثير من متع العيش التي يرفل في ظلالها، حتى ليكاد يصاب باليأس من الحياة، ويكفي أن نبحث عن أثر الحيرة والقلق على النفوس، لنعلم أن أوجه الألم والمعاناة لا حصر لها.

---

١ سنن ابن ماجه، وقال الألباني: صحيح.

٢ سورة الانشقاق: ٦.

والمعنى الذي نقصده أنه لا يجب مطلقا الحكم على الناس من خلال ظاهرهم، فلربما كان هذا الظاهر دليلا على قمة السعادة والهناء، بينما الحقيقة تغايره تماما أو كثيرا، وأنه يعاني ألما مكبوتا لا يطلع عليه إلا من عايشه.

إن الخالق جل في علاه لم يجعل هذا التباين والاختلاف بين البشر، أو حتى في النفس الواحدة في أحوال مختلفة، من قبيل العبث، تنزه الله عن العبث وعلا علوا كبيرا، بل لحكمة مقصودة، التعرف عليها يحتاج إلى الصدق معه ﷻ، والأخذ بالأسباب الموصلة إلى إدراك وجه الحكمة في كل ما تجري به المقادير.

وإذا كان في مقدور البشر الاهتداء إلى جانب من هذه الحكمة أحيانا فليس معناه أنهم أحاطوا بها من كل وجه، مما يعني حاجتهم المتجددة والدائمة للاحتماء بحمى الخالق سبحانه، ليجنبهم من المخاطر ما لا يطلعون على حقيقته.

ومن هنا كانت رحمة الله تعالى بخلقه، أن هداهم إلى الصبر والتضرع والرضى، الذي يخفف عنهم كثيرا من ويلات الألم إذا ما وقع بهم، فإذا كان قدر الإنسان أن يعاني ويكابد، ويظل يكدح للوصول إلى مبتغاه، ولا يفارقه الابتلاء بالألم أو المصيبة: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}[1]، {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}[2]، فقد يكون هذا

١ سورة البقرة: ١٥٥.

٢ سورة محمد: ٣١.

الابتلاء سببا في مغنم لم يكن للإنسان حيلة في الوصول إليه، لولا هذا الألم والمعاناة، وكأن ما أصابه عبارة عن أجر وثمن لما يتحصل عليه بعد المصيبة من ثمرة وعطاء، وخير وفير.

وما أحسن تصوير المولى تبارك وتعالى لهذا المعنى بقوله: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ}[1].

فقوله تعالى: "مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ"، والذي يشير إلى شدة الألم والمصيبة، ولكن الثمرة والنتيجة تمثلت في "لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ"، إنها ثمرة حقيقية لا تعدلها ثمرة قط، ولكنها تحتاج فقط إلى التصديق والإيمان، هذه الثمرة أو هذا الأجر العظيم لا يمكن أن ينال إلا بالصبر على قضاء الله تعالى والرضى به، {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}[2].

وقد أخبر جل في علاه أن جزاء الصبر على بلوائه لا يعدله جزاء، {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[3].

إن قيمة الإيمان الحق هي التي تعين الإنسان على الامتثال لمراد الله تعالى حتى ولو غابت عنه الحكمة المرادة التي تكمن يقينا في ثنايا مصابه، ولا تتخلف أبدا، ولكن ليس في مقدور الخلق وإن اجتمعوا أن يحيطوا بكل

١ سورة آل عمران: ١٧٢.

٢ سورة البقرة: ١٥٦.

٣ سورة الزمر: ١٠.

خفايا الحكمة التي أقام الله عليها نظام الخلق لأن هذا ليس في طاقة عقولهم، ومن هنا كانت قيمة التصديق بالغيب.

ولولا الابتلاء لادعى الناس جميعا استحقاقهم الأجر العظيم عند الله تعالى، ولكن الله تعالى يقيم الحجة عليهم بالابتلاء والاختبار والامتحان، فقد قضى الله على الناس أن يبتليهم في كل ما يحبون، ليميز الخبيث من الطيب، أيهم نجح في الامتثال بالعبودية على الوجه الذي أمر سبحانه، وهم الصابرون الذين رضوا بقضائه وأقداره ﷻ، وأيهم انقلب على وجهه وباء بالخسران، والعياذ بالله {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}[1]، ويالها من فتنة تلك التي تدفع الإنسان إلى اليأس والقنوط، والشك في قدر الله، فيتخلى عن أعمال الطاعة التي كان يداوم عليها، وكأن لسان حاله يقول "ما فائدة كل ذلك"، والعياذ بالله.

فالبلاء لا ينزل إلا لحكمة، ومنها التمحيص والفرز وتفاوت الدرجات، وفي الحديث: «لَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ»[2].

وفي الحديث أيضا: "مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ، وَلاَ حُزْنٍ، وَلاَ أَذًى، وَلاَ غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ"[3].

---

١ سورة الحج: ١١.

٢ المستدرك على الصحيحين للحاكم، وقال الألباني صحيح.

٣ صحيح البخاري.

وفي هذا المعنى أيضا: "مَا يَزَالُ البَلاَءُ بالمُؤمِنِ وَالمُؤْمِنَةِ فِي نفسِهِ ووَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى الله تَعَالَى وَمَا عَلَيهِ خَطِيئَةٌ"[1].

فالابتلاء يقع لتكفير الخطايا، ومحو السيئات، وكذلك لتمحيص المؤمنين، وتمييزهم عن المنافقين.

إن غفلة الناس عن إدراك هذه المعاني يرجع إلى مدى التصديق بالغيب، وإيمانهم به أو عدمه، وليست الغفلة راجعة إلى وجود مخرج أو مهرب للناس من الوقوع تحت قدر الله فيتجنبوا الابتلاء والمصيبة، بل هو الشيطان الذي يستحوذ على معظمهم فيمنع عنهم رؤية الحق الناصع البين الأكيد.

فكما لا يوجد على وجه الأرض أحد يمكنه أن ينكر البلاء، وما يجري على الناس من محن ومصائب، كذلك لا يوجد كائن مهما كان نسب إلى نفسه أنه صاحب ما يجري على الناس من أقدار، حلوها ومرها، على وجه حقيقي، بل كل من ادعى ذلك، ما ادعاؤه إلا محض افتراء، لأن من يجري على يديه شيء من ذلك يصيب به غيره، ما هو إلا أداة سخرها الخالق سبحانه لإنفاذ مراده، ولو شاء لتعطلت ولم تفعل شيئا.

وخير مثال على ذلك ما أصاب سيدنا عمار بن ياسر من تنكيل وتعذيب، واستشهد أبوه ﷺ، وأمه السيدة سمية أول شهيدة في الإسلام، بعد أن نالهم من المشركين أشد العذاب، دون أن يتزحزحوا عن الإسلام قيد أنملة، وكل ذلك على مرأى من رسول الله ﷺ، وما زالت أمة الإسلام تولد في بداية مهدها، حيث لا نصير ولا معين من بني البشر.

---

١ المستدرك على الصحيحين للحاكم، سنن الترمذي، وقال الألباني صحيح.

فهل استطاع المشركون ممارسة ألوان التعذيب والسادية والقتل على غير علم من الله، نعوذ بالله من ذلك، وهل فعلوا ذلك وعجز الخالق سبحانه عن صدهم عن هذا التعذيب؟ معاذ الله تعالى، فلم تركهم سبحانه وتعالى يتفنون في هذا التعذيب، إنها حكمة مؤكدة تحمل في ثناياها من الخير ما لا يعلمه البشر، حينئذ.

كذلك هل أبى رسول الله ﷺ أن يدعو لهم، أو عجز عن الدعاء، يقينا إن ذلك لم يحدث، ولكنها الحكمة التي يعلمها ﷺ، والتي لا تتحقق إلا بوقوع البلاء والمصيبة، ولو دعا ﷺ الله أن يرفع البلاء، لكان معناه الاعتراض على مراد الله والعياذ بالله، ولهذا لم يكن منه ﷺ إلا قوله: «صَبْرًا يَا آلَ يَاسِرٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ»[1].

وإذا كان بعض الناس سرعان ما يسارع إلى الشيطان إذا ما تعرض لفتنة ما، وذلك كما حدث لبعض المسلمين عندما تعرض للتعذيب، فسارع إلى ترك الإسلام والعياذ بالله، أو التحرر من بعض تكاليفه، بل لعله يتنكر لكل ما يتعلق بالإسلام والعياذ بالله زيادة في استرضاء الباطل.

وهؤلاء يظن كثير من الناس أن ما تعرضوا له من فتنة فيه ظلم، والعياذ بالله، فقد أخبر عن نفسه سبحانه أنه ليس بظلام للعبيد: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[2]، ولهذا فلابد من أن نتأدب مع الخالق سبحانه، ونعلم أن ما أخبر به ﷻ هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

---

١ المستدرك على الصحيحين للحاكم.

٢ سورة فصلت: ٤٦.

والمعنى أن يستقر في قلوبنا وأذهاننا أن قدر الفتنة التي تقع على العباد محكومة بقدر الله تعالى، لا تزيد ولا تنقص إلا بقدر مراد الله تعالى، وأن هؤلاء الذين انقلبوا على وجوههم حتما ويقينا أن الله قدر في قلوبهم ما لا نعلمه، ولولا ذلك لما تعرضوا لهذا القدر من البلاء الذي يخرجهم من الدين، وأما الذين أخذوا برخصة الله تعالى في بعض المواضع حين نزلت بهم الفتنة فهؤلاء لم يخرجوا عن حدود الشرع، كما سنبينه لاحقا.

فالبلاء والمصيبة حق، وأن كل ما يجري إنما هو بمشيئة الله تعالى وتقديره، ولا راد له سواه، وأن كل ذلك لا يقع إلا لحكمة، فليس المقصود أبدا تعذيب البشر، لمجرد التعذيب، بل إنها الحكمة، وقد لا يفطن إليها معظم الخلق، أو أكثرهم.

ولأن قدر الله غيب لا يعلمه سواه ﷻ، فإن اللجوء إليه سبحانه لكشف البلاء ورفع المصيبة يعتبر من لوازم العبودية، لأنه إقرار بأن القادر على رفع المصيبة هو الذي قدرها سبحانه، ولهذا كان التوجه إليه بالدعاء مطلوبا، وتكليفا من تكاليف الإسلام {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ}[1]، دعاء المضطر الطامع في رحمته سبحانه، النابع من صبر ورضى، وليس من يأس وقنوط.

إن عدم دعاء الرسول ﷺ في موطن ما إنما يرجع إلى خصوصية له ﷺ لأنه مستجاب الدعوة، فدعاؤه في مواطن يدل على أدبه ﷺ مع الله ﷻ، وتعليما للناس أنه ما من شيء إلا بقضاء الله تعالى وقدره، وأن الذي بيده مقاليد كل الأمور هو الله ﷻ ولا أحد سواه.

---

١ سورة النمل: ٦٢.

وأما المواطن التي لم يدع فيه برفع الكرب وكشف الغم، فإنما هو بسبب إدراكه ﷺ الحكمة من الابتلاء، فلا يناقض دعاؤه الحكمة المرادة أبدا، ولأنه لو فعل ﷺ ولم يتحقق دعاؤه لوقع الناس في فتنة أكبر، من أجل ذلك كان توجهه إلى الله بدعاء ما إنما هو بوحي من الله تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى}[1].

أما بالنسبة لباقي الخلق فليس منهم من اطلع على الغيب أو علم الحكمة التي يريدها الله تعالى على وجه اليقين، ولهذا كان دعاؤهم في كل حال هو من لوازم العبودية، ولأن دعاءهم لا يزيل الخوف والرجاء والطمع، فليس فيه معارضة لقضاء الله تعالى.

ولعل حكمة البلاء أحيانا أن يقف المرء بين يدي خالقه متضرعا خاشعا خاضعا ذليلا، فإذا ما تحقق ذلك، تم المراد من المصيبة والبلاء فيرفعه الله تعالى، ولعل هذا هو المقصود بحديث: "لَا يَرُدُّ القَضَاءَ إِلَّا الدُّعَاءُ"، وما في معناه، وليس هذا من قبيل رد القضاء بمعنى تغيير الأقدار، معاذ الله تعالى، إن شيئا من ذلك لا يمكن أن يحدث، ولكنه الغيب الذي لا نعلمه بينما يعلم الخالق سبحانه كل شيء علما أزليا قديما لا يحدث بحدوث الوقائع والأحداث.

فإذا علم الله تعالى نجاح الإنسان في الاختبار فإنه يقدر عليه أخف البلاء لهذه الحكمة التي يعلمها، ولكن إذا لم يمتثل الإنسان بالدعاء، فإن علم الله تعالى الأزلي، يعلم ذلك على وجه اليقين، فتكون النتيجة أن قضاءة يتوافق مع مراده فتكون المصيبة والبلوى شديدة.

---

١ سورة النجم: ٣.

فليس في الأمر أي تغيير أو تبديل ولكنه العلم الأزلي الذي يختص به الخالق سبحانه، والغيب الذي لا يعلمه الإنسان.

ولهذا لم يكن من حيلة للإنسان إلا التصديق والصبر والدعاء، وهذا لا ينافي الأخذ بكل الأسباب التي شرعها الله تعالى لرفع البلاء، فإن كل هذه الأسباب هي أقدار الله تعالى يسوقها كيف يشاء وحيث يشاء.

ومع الأخذ بكل الأسباب المادية التي يظن بها دفع البلاء، لابد أن يصاحبها التوجه إلى الله بالدعاء، لأن الركون إلى الأسباب وحدها خروج عن دائرة العبودية والعياذ بالله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}[1].

وليس معنى الدعاء لزوم رفع البلاء، فقد يكون في بعض البلايا من الخير ما لا يخطر وقتها على قلب بشر، ولعل منها ما يقي من أهوال وبلايا أشد منها أضعاف مضاعفة، فكم من بلية حملت من نسائم الرحمة ما لو علمه الناس لطلبوها بألسنتهم، ولكنها الحكمة الغائبة، التي يوقن بها أهل الصدق والإيمان.

وكذلك يكون البلاء ـ في بعض الأحيان ـ سببا في كبح طغيان النفس البشرية وتجبرها، حتى وإن تفاوت القدر من نفس إلى أخرى، فإن هذا لا ينفي أثر الابتلاء في ذلك الأمر الجلل.

إن الشعور بالضعف والقهر أحيانا يؤدي إلى تنبيه الكثيرين حال قوتهم وسطوتهم، حتى لا يتمادوا وينساقوا وراء شهواتهم وأهوائهم، والذي يمكن أن يوافق حالة ضعف من آخرين يستهدفهم هذا القوي بسطوته

---

١ سورة غافر: ٦٠.

وسلطانه، فلولا البلاء لانساق معظم الخلق لأهوائهم ولما سلم أحد من بطش آخر، ولما سلمت الحياة من كثير من الشرور.

إن عدم التخلص من هذه الشرور بالكلية ليس معناه أن قدرا لا يستهان به من الشرور قد منعه وقوع البلاء ومعايشة الناس له، ولجوؤهم إلى الدعاء.

ومع هذا فإن كل ما يجري على أيدي الناس ويدخل في دائرة البلاء والمصيبة هو مما يهيئه الله ﷻ لينفذ مراده وقضاؤه، فإن الله إذا أراد شيئا هيأ له الأسباب.

وإذا كانت بعض المصائب تمنع وقوع مصائب أعظم منها كثيرا، فإن منها ما يوقع في أشد منها أيضا والذي يجب الحذر منه وعدم الغفلة عنه.

فكم من صاحب بلوى يجأر إلى الله بالدعاء ليل نهار، دون أن يكشف عنه سبحانه ما وقع من بلاء، وكلما استعجل الإجابة كلما بعدت عنه، حتى ليصيبه الشك أو يكاد، في صدق ما وعد به، ويالها من فتنة قد تكون أبعد أثرا من البلوى والمصيبة نفسها.

☜ **متى يرفع الهم وتزول المصيبة؟** أين قوله سبحانه: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}[1]، متى تكون الاستجابة؟.

إنهم كلما استبطأوا الإجابة ضاقت عليهم أنفسهم {وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا}[2]، ولم يتدبروا قوله تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ

١ سورة غافر: ٦٠.

٢ سورة الأحزاب: ١١.

مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ}[1].

فليس معنى الدعاء أن تتعطل سنن الله تعالى في الخلق، والتي أحكم بها سبحانه ملكوته لصلاح حياة الناس، ولكنهم لا يتفكرون.

ولو تدبرت العقول قليلا لأدركت أن نظام الخلق لو سار بحسب رغبات الناس وأهوائهم لانهارت الدنيا على من فيها، أو لعمها التهارج والفساد من كل وجه، وصدق الحق جل في علاه إذ يقول: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا}[2]، فما بالنا لو أصبح كل إنسان بالدعاء إلها؟.

لأنه لو ترك الأمر لأهواء الناس لما توقفوا عن دفع البلاء عن أنفسهم بل لتمادوا طمعا في الحصول على ما بيد الأخرين، ولو افترضنا ـ على سبيل الجدل ـ أن تحقق لهم ذلك لأهلك الناس بعضهم بعضا.

ولهذا كانت حكمة الحق سبحانه أن تكون الاستجابة على وفق مراده تعالى وليس بحسب رغبات الناس وأهوائهم.

ولو نظرنا من زاوية أخرى، وقصرنا الدعاء على رفع البلوى التي تصيب الإنسان فقط، ثم أجرينا الأمر على وفق ما نحب، فماذا تكون النتيجة؟

إن أي إنسان سيصيبه مكروه سيسارع فورا إلى الدعاء، حتى لا ينهكه الألم، ويترتب على ذلك أن يكون الدعاء سببا في رفع المصيبة فور وقوعها، وهذا سيؤدي إلى تعطيل مراد الله تعالى من وقوع المصيبة، لأنها ستندفع بالدعاء فورا إذا ما وقعت، فهل يمكن أن ينصلح حال الخلق بذلك؟

---

١ سورة البقرة: ٢١٤.

٢ سورة الأنبياء: ٢٢.

كذلك كيف تتفاوت درجات الناس إذا كانوا بالدعاء ينجون من معاناة المصيبة والابتلاء، وكيف يتمايز أهل الصدق من أهل النفاق.

إننا لو ظننا ذلك لكان معناه أن الله يجري المقادير على وجه العبث والعياذ بالله، وهذا كفر صريح ونعوذ بالله منه، فإن الله ﷻ لا يجري قضاء إلا لحكمة، وكل تعطيل لهذه الحكمة هو الفساد المبين والعياذ بالله.

ولأن البلاء أصل من أصول الإسلام اختصه الله تعالى برسالة يتوقف عليها صلاح الخلق، فقد أذن سبحانه وتعالى في بعض مواطن البلاء في الأخذ ببعض الرخص، التي تخفف من أثر البلوى، أو المعاناة، ولكن هذه الرخص تقدر بقدر محدد، وليست متروكة لأهواء الناس.

📖 **ولتوضيح ذلك يمكن أن نقول إن أنواع البلاء من حيث الترخص فيها وعدمه، تنقسم إلى قسمين:**

📖 **(القسم الأول):**

وهو يدل على أن الإسلام دين اليسر ورفع الحرج، وليس الدين الذي يكلف الناس ما لا يطيقون.

ولهذا رفع تبارك وتعالى الحرج عن المضطر فأحل له من المحرمات ما يزيل ضرورته، وأهم الرخص في هذا الشأن ما دل عليه قوله تعالى: {مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[1].

فهذه الآية تبين أن من وقع تحت بلاء الإكراه والتعذيب الذي لا يحتمل، على أن يكفر بالله وبالإسلام ورسوله ﷺ، فإن الإسلام يرخص له النطق

---

١ سورة النحل: ١٠٦.

بكلمة الكفر بشرط أن يكون قلبه مطمئن بالإيمان، فيكون الكفر كلمة ينطقها اللسان لا تتعداه.

وهذه الرخصة ليست محتمة يتوجب على من وقع عليه التعذيب أن يأخذ بها، بل هو مرخص له في ذلك وله أن يختار الموت دون النطق بكلمة الكفر ويكون ثوابه أعظم عند الله تعالى، لما فيه من حكمة إعزاز الإسلام والتحقير من شأن أعدائه.

وانظر ماذا فعل حبيب بن زيد الأنصاري ﷺ الذي أرسله رسول الله ﷺ رسولا إلى مسيلمة الكذاب باليمامة، فكان مسيلمة إذا قال له: أتشهد أن محمدا رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، وإذا قال له: أتشهد أني رسول الله؟

قال: أنا أصم لا أسمع، فعله مرارا، فقطعه مسيلمة عضوا عضوا ومات شهيدا رحمه الله، لا يزيده على ذلك إذا ذكر له رسول الله ﷺ آمن به وصلّى عليه، وإذا ذكر له مسيلمة قال: لا أسمع، وكان دمه يسيل ويسأله فيجيب نفس الجواب إلى آخر رمق به، وهو ثابت على ذلك، رحمه الله تعالى ورضي عنه وأرضاه.

وسيرة الصحابة الكرام عامرة بهذه الأمثلة، التي ضحوا فيها بأنفسهم فداء لدينهم رضوان الله عليهم أجمعين.

فالتخيير في دفع البلاء هنا إنما هو رخصة من الخالق سبحانه، وليس من قبل الإنسان نفسه،

ولولا الرخصة لكان يحرم النطق بكلمة الكفر، مهما كان البلاء والعذاب، ولكنها رحمة الخالق سبحانه.

ومن هذا القسم أيضا ما يخير الانسان في التعامل معه، وهو ما يتعلق بأحكام الحاجة والضرورة، فمن ابتلي بالجوع مثلا أبيح له ما يتعلق بدفع هذا الجوع، إن كان قد وصل إلى الضرورة أو الحاجة، فيباح له من المحرمات ما يرفع هذا البلاء عنه، وكل هذا محكوم بنصوص شرعية منضبطة له ضوابطها الكاملة، والإنسان يخير في بعض منها ويكون واجبا عليه في بعض آخر.

ونستطيع أن نقول إن هذا القسم من الابتلاءات هو الذي دفع الناس - وبخاصة غير المسلمين بكل أسف - إلى البحث والتجربة والتعلم وما يتعلق به من ابداعات واختراعات تخفف عن الإنسان كثيرا مما يعانيه من آلام، ولهذا قالوا: إن الحاجة هي أم الاختراع، وما الحاجة في حقيقتها إلا نوع من أنواع الابتلاء.

📖 (أما القسم الثاني)

فهو قسم لا خيار للإنسان في دفعه، لأنه ليس مما خيره الله فيه، بل لا حيلة له فيه إلا الامتثال لمراد الله تعالى، وليس له إلا الدعاء، وفي كثير من الأحيان عندما يريد الإنسان أن يدفع مثل هذا البلاء يقع فيما هو أشد منه وأفدح، لكن يغريه أنه يتخلص من فتنة حاضرة ببلوى أخرى مؤجلة لا تقارن بها الفتنة الحاضرة بحال من الأحوال.

ولتقريب الصورة نضرب مثالا بمن تعرض لبطش قوي، وإكراه على أن يقتل إنسانا مثلا، أو يشهد عليه شهادة زور تودي بحياته، فمثل هذه البلوى

لم يرخص الخالق ﷻ لمن ابتلي بها أن يفتدي نفسه بأن يوقع بغيره، لأن حرمة النفس الأخرى ليست أهون عند الله من نفس المبتلى"[1].

كذلك فإن دفع ما يتعرض له الإنسان من البلاء الذي أوقعه الله عليه، لا يحل له أن يكون سببا في إيذاء الآخرين، لأن هذا يكون من قبيل النقمة والاعتراض والعياذ بالله، وهو حرام قطعا.

ولكن إن ضعف المبتلى أو المكرَه بسبب من أسباب الضعف البشري، ولم يجد له حيلة، بل فقد القدرة على التمييز والتقدير، فأوقع بغيره تحت وطأة العذاب، وعلى غير رغبة ورضى منه، فلعل الله سبحانه أن يعفو عنه، بشرط أن يكون نادما ندما حقيقيا، على ما وقع فيه من جرم، وأن يتوجه إلى الله تعالى راجيا عفوه ومغفرته، وهذا الوجه لا يطلع على حقيقته إلا الله تعالى، ولهذا فهو موكول إليه سبحانه.

📖 **ومن هذا القسم أيضا**:

وجه آخر اشتبه على الناس أمره، فظنوا أنه يمكنهم الترخص في دينهم بقدر ما يدفع عنهم البلاء، وتوهموا أن ذلك يدخل ضمن الرخص والاختيار، مستندين في هذا الفهم إلى حديث مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ،

---

١ وخوف المكره على نفسه ليس سببا مقبولا لأن يقتل الغير، بل له أن يدفع عن نفسه حتى لو قتل دفاعا عن نفسه، ولكن ليس له أن يعتدي على حرمة الغير، لأن كل إنسان معصوم الدم، فليس له أن يبقي على حياة نفسه بقتل غيره.

وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ البَلَاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»[1].

فمع أن الحديث يخبر عن حال الأنبياء والمصطفين، إلا أن بعض من يتعرضون للبلاء دفعهم شدة ما يعانون إلى البحث عن مخرج مما يلاقون عن طريق الترخص في الدين نفسه، ويتوهمون أن الحديث يمكن حمله على وجه يساعد على هذا الوهم.

ويمكن تقريب المعنى لو تصورنا ـ مثلا ـ بلاد الشرك وكل من ينهج نهجها، وما تلاقيه الأقليات المسلمة من تنكيل وعذاب، وهكذا في كثير من بقاع الدنيا، حتى أصبح كل من يظهر تمسكا بدينه معرضا للتضييق عليه في مأكله ومشربه وحياته نفسها في أحيان كثيرة، ومما لا شك فيه أن بعض هؤلاء المبتلين يدخلون ضمن دائرة {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ}[2]، وهذا لا يطلع عليه إلا الله تعالى.

ولكن نتحدث عن بعض آخر ممن يعاني البلاء فيذهب إلى تعاطي المحرمات، من خمر أو التعامل بالربا أو المشاركة في اللهو والخلاعة، وغير ذلك من الأشياء، استرضاء لأهل الباطل، ولتجنب شرهم، وإبعاد نظرهم عنه.

ويتوهم هؤلاء بأن الحديث يقسم البلاء على قدر الدين، بمعنى أن الإنسان كلما رق دينه وضعف يخفف عنه البلاء، وبالتالي فهو يخير في تدينه بين أن يعض عليه بالنواجذ، أو يتنازل عن جزء منه دفعا للبلاء،

---

١ سنن الترمذي، وقال الألباني: صحيح.

٢ سورة النحل: ١٠٦.

والتنازل ليس مقصودا به ترك بعض القربات، بل يقصد به الوقوع في بعض المحرمات، لأن هذا هو الذي ينتقص من الدين حقيقة.

فهل يوجد أي ضابط لقدر الدين هذا الذي يحافظ عليه الإنسان أو يتنازل عنه؟ وهل علم هذا الذي يتنازل عن دينه أنه سيخفف عنه البلاء يقينا، أم يمكن أن يكون قد وقع في أشد منه، وماذا لو لم يذهب البلاء إلا بالخروج من الدين بالكلية؟

يقينا لا يوجد أي ضابط، ولا يوجد أي نص شرعي يشير إلى أن هذا مما يخير فيه الإنسان، أو يباح له بأي وجه من الأوجه، بل هي الفتنة التي يسقط فيها لا محالة، والعياذ بالله.

إن الحديث يبين درجات الخواص وأهل القربات ليكونوا قدوة لمن أراد أن يلحق بهم في الفوز بالدرجات العلى في الحياة الآخرة، وليس بابا للخروج من الدين والعبث بشرائعه، {قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[1].

وكم من أناس رضوا بما يصيبهم من بلاء، بقلوب صادقة مطمئنة أن هذا الابتلاء لابد أن يكون وراءه خير، إما عاجل أو آجل، ولكنه يقين لا شك فيه.

أليس فقد المال والخوف من ضياعه من أسباب البلاء التي يعانيها الإنسان، ومع هذا يشقى كثير من الناس عمرا طويلا ليوفر بعض المال ثم يتنازل عنه طوعا ورغبة ليذهب إلى بيت الله الحرام حاجا لا لشيء إلا طاعة لله تعالى، ليس له مغنم مطلقا إلا ما وعده الله تعالى به في الآخرة، أليس هذا

١ سورة الأعراف: ٢٨.

وجه من أوجه الابتلاء في المال، أليس ما يمكن أن يكابده الإنسان في عمله أو يواجهه من تعنت رؤسائه أحيانا يمكن أن يأخذ وجها من هذا القبيل، إنه ابتلاء إذا لم يمكنه دفعه فليحتسب عند الله تعالى ما يلاقيه، وكأنه يدخر مافاته من حق أو كسب عند من لا تضيع ودائعه سبحانه.

أليس أخوف ما يخاف عليه الإنسان هو حياته، ومع هذا يقدم أهل الإيمان حياتهم طوعا ورغبة، طاعة لله تعالى إذا ما توجب عليهم الذود عن دينهم.

إن اليقين في موعود الخالق سبحانه وتعالى، من أن المآل الحق، إما إلى جنة أو إلى نار والعياذ بالله تعالى منها، يساعد في تحمل كثير من الابتلاءات طمعا في ثواب الآخرة، والتي هي دار النعيم الذي لا ينقطع {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}[1].

وليس من عجب أن يقول أحد من المبتلين: إن البلاء أحب إليه من العافية، وليس المعنى أنه يكره العافية، بل القصد أنه يؤمن يقينا أن البلاء الذي ينزل بأهل الطاعة إنما هو بقصد رفع درجاتهم، كما ذكر الحديث الشريف، ولهذا فعندما ينزل البلاء بهؤلاء فإنهم يشعرون وكأن الله تعالى اختارهم واجتباهم ليكونوا في أعلى الدرجات، فيزداد طمعهم ورغبتهم في القرب منه سبحانه، فليس الأمر يعنى أنه يبحث عن البلاء، ولكن عند وقوعه يشعر بهذا الشعور الذي يجعل كل الآلام تهون وتنقلب وكأنها نسمة من نسمات الرحمة.

١ سورة العنكبوت: ٦٤.

إن هذا ليس من قبيل التكلف والادعاء، فعدم قدرة الكثيرين على تذوق هذه المشاعر لا يعنى أنها ليست موجودة، وليس معنى أنهم بشر كسائر البشر أن يكون ما يستشعرونه متاحا للجميع، بل هي النفس البشرية التي تظل مجهولة مهما ظن الإنسان أن قد سبر أغوارها.

وهكذا لو اطلعت على ما يجول بخاطره لصدقته، فلم يدفعه شيء إلى هذا القول إلا طمعه في موعود الله تعالى الذي لا يفنى ولا ينتهي، حتى ولو كان ثمن ذلك الانتقاص من ماله أو صحته أو من حياته، فكل هذا لا قيمة له إذا ما قورن بغمسة واحدة في نعيم الآخرة، ففي الحديث: "يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ"[1].

إن التفاوت بين الناس هو الذي يقرب اليقين من أحدهم ويجعله مستحيلا بالنسبة لآخر، فليس الناس متشابهين في مشاعرهم، كما يتشابهون في ظواهرهم، بل اختلافهم لاحصر له.

ومن هنا كانت الصفوة من أهل الإيمان هي التي ارتقت إلى درجة الشعور الذي يجعلهم كأنهم يعاينون ما وعد الله به من ثواب، فخضعت كل خلايا جسدهم لمراد قلوبهم وعقولهم فرأوا في البلاء من نسمات الخير

١ صحيح مسلم، (فيصبغ في النار صبغة) أي يغمس غمسة (بؤسا) البؤس هو الشدة.

والرحمة ما لم يجدوه في العافية، لأن خير العافية مستهلك في الدنيا، بينما خير البلاء مدخر للآخرة.

والآخرة حق والجنة حق والنار حق، فالموت قادم لا محالة، طال العمر أو قصر، ولولا الموت لتغير وجه الحياة بالكلية، ولكن الله شاء أن تنتهي الحياة الدنيا بالموت لا محالة، {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ}[1]، {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}[2].

والذي أخبر عن أن كل نفس ذائقة الموت ـ الموت المحسوس المشاهد ـ هو الذي أخبر عن نعيم الآخرة، فكن فيما وعد به سبحانه أوثق مما بين يديك أو مما تملكه بالفعل.

📖 **من جانب آخر**: لمَ ننشغل عند المصيبة والابتلاء بالخروج إلى المعصية ـ كمن يلجأ إلى التدخين مثلا بسبب شدة حزنه أو ألمه، أو غير ذلك ـ طمعا في التخفيف من آثارها، بدلا من التفكر في آيات الرحمة التي يمكن أن تحملها البلوى، عسى أن تكون سلوى وشفاء.

ألا يمكن أن تكون البلوى سببا في لجوء الإنسان إلى الله تعالى بحق، وسببا في أن يخلص الدعاء فتكون وسيلة لهدايته وفلاحه، بعد أن كان مغترا بقوته وعافيته وماله وسلطانه، ألم يقل المولى جل في علاه: {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى}[3].

---

١ سورة آل عمران: ١٨٥، سورة الأنبياء: ٣٥، سورة العنكبوت: ٥٧.

٢ سورة الرحمن: ٢٦.

٣ سورة العلق: ٦، ٧.

أليست المحنة هي عبارة عن اختبار يحدد لك مكانك في الآخرة، وهل يعدل نجاحك في اختبار العبودية أي اختبار آخر من اختبارات الدنيا؟

كم سهرنا الليالي وأنفقنا الأموال على مدى فترة من العمر لا تقل عن الربع إلا قليلا، ورضينا بذلك طمعا في راحة ما تبقى من الحياة والذي لا يزيد عن الثلاثة أرباع الباقية في أحسن الأحوال إلا قليلا، فهل نأبى أن نبتلى برهة من الوقت مهما طالت فهي برهة وجيزة إذا ما قيست بأبدية الآخرة؟

إذا كانت البلوى هي سبب الرجوع إلى الله تعالى، أو التمسك بشرعه على الوجه الذي يرضيه سبحانه، وبخاصة عند تحقق العجز وانعدام الحيلة، أفلا يكون هذا من مكامن الحكمة فيما يجري على الإنساء من ابتلاء وألم.

وانظر إلى هذا التصوير القرآني المعجز الذي يبين لك كم للمصيبة أحيانا من أجر: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[1].

هل يوجد ضمان وأمان لمن ترخص حال الابتلاء أن لا يقع في الحرام التام إذا ما عوفي من البلوى بالكلية؟

١ سورة يونس: ٢٢، ٢٣.

هل يمكن فعلا أن تتنازل عن بعض دينك طمعا في تحصيل راحة مرجوة ليست مؤكدة بحال من الأحوال، وما يدريك أنك تعود إلى دينك مرة أخرى؟

إن كثيرا ممن يبتلون بالأمراض أو بمصائب الحياة يفترسهم الشيطان فتعلو أصواتهم بالعويل: "لماذا يارب"، وكأن لسان حالهم يقول: أنهم يصلون ويصومون ويزكون فلم يبتليهم الخالق سبحانه بهذه الابتلاءات؟ {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[1].

إن هذا ليس حال أهل الإيمان، ومن أجل ذلك كان القصص القرآني يسوقه المولى تبارك وتعالى ليعتبر الناس ويتعظون، وهذا سيدنا يوسف عليه السلام يبتلى أشد الابتلاء، فيصبر ويتوجه إلى الله تعالى بالدعاء، ولو ترخص مع التي راودته عن نفسها، لربما أعلت من شأنه عند قومها إلى أعلى درجة، ولكن اليقين الذي لا يتزعزع في موعود الله تعالى هو الذي ثبته وليس الترخص بالمعصية، {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ}[2].

وكم من أعلام استطاعوا أن يجعلوا من محنتهم منحة، عندما انشغلوا ـ حال الابتلاء ـ باستنفار طاقاتهم على التحمل والصبر الإيجابي الذي يتحدى المصيبة ليجعلها وسيلة إلى تحقيق ما لم يحققه كثير ممن عافاهم

١ سورة الحجرات: ١٧.

٢ سورة يوسف: ٣٣.

الله من مثل هذه المصيبة، فكان ابتلاؤهم سببا في تخليد ذكراهم في العالمين.

فبدلا من أن يستحوذ الشيطان عليهم ويخرجهم من الدين نجحوا في التغلب عليه، وذلك عندما بحثوا عن نعم الله التي لا تحصى، التي مازالوا - حين المحنة - يتمتعون بها على أحسن وجه، فانتفعوا بها ونفعوا الناس جميعا، ونضرب مثالا على ذلك المعنى، بهذا الإمام الذي اقترن ذكره بكتاب الله جل في علاه، فلا يذكر إلا ويذكر معه علم القراءات، قراءات القرآن الكريم، وياله من ذكر عطر لم ينله إلا قلة من المقربين، إنه الإمام الشاطبي "القاسم بن فِيرُّه بن خلف بن أحمد الرعينيّ، أبو محمد الشاطبي، إمام القراء، كان ضريرا، ولد بشاطبة (في الأندلس) وتوفي بمصر"[1].

هذا الإمام ابتلاه الله تعالى بفقد البصر، فلم يجعله ذلك يبحث عن الترخص في الدين، ليعوض نعمة البصر، بل على العكس من ذلك استنفر في نفسه كوامن نعم الله عليه، فانفرد بالإمامة في هذا الفن العظيم، ولو أنه بحث عن بعض الترخص من الدين بسبب مصيبته، لمات دون أن يدري به أحد.

ولا ننسى في هذا الصدد أنه في عصرنا الحديث، كم من أصحاب بلوى "وهم أصحاب الإعاقة" نجحوا في تحقيق إبداعات واختراعات، بل وبطولات عجز عنها كثير ممن عافاهم الله تعالى، ولو أنهم أسلموا أنفسهم

١ انظر: الأعلام للزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي.

للشيطان وحصروا أنفسهم داخل إطار البلوى لماتوا كمدا، أو أصبحوا عبئا على الحياة ككل عاجز عليل.

وإذا كان بعض المبتلين يتوهم أنه حال ترخصه في دينه يمكنه الخروج من المحنة أو المصيبة أو التخفف منها، بمعنى التخلص من الألم، أو الوقاية من فقد المال أو الجاه أو ما شابه ذلك، فكل ذلك ليس مؤكدا، كما أن من يفعل ذلك ليس بمأمن من الوقوع في محنة أو مصيبة أشد وأدهى من التي أراد أن يتخفف من ألمها.

وكل ما يرغب في تحصيله، أو يطمع في عدم فقدانه ـ حال ترخصه ـ يندرج ضمن متاع الدنيا، الذي سرعان ما يزول ولا يبقى منه إلا أنه ترخص في دينه من أجل عرض زائل، أو خوفا من ألم يمكن التغلب عليه بالدعاء والتضرع إلى الله تعالى أن يرفعه، كما يمكن الصبر عليه طمعا في المثوبة والغفران.

وقد حفل التاريخ الإسلامي بمثال ناصع لمن أقبلت إليه الدنيا فرفضها، تورعا في الدين، وإيثارا للمثوبة عند الله تعالى، فابتلي بسبب الرفض أشد الابتلاء، ولكنه ظل على موقفه وتحمل كل الأذي تشبثا بالمكانة المثلى للعابدين، وتمسكا بدينه على أكمل وجه، وما أشدها من فتنة.

إنه **الإمام أبو حنيفة**، صاحب المذهب الفقهي الذي اقترن ذكره بين الناس بالعبادة، أي أنه يذكر في مواطن الإيمان والإذعان بالعبودية لله رب العالمين، ويالها من مكانة.

فقد أراد الخليفة أبو جعفر المنصور الإمام أبا حنيفة على أن يوليه القضاء فأبَى، فحلف عليه ليفعلن، فحلف أَبُو حنيفة أن لا يفعل، فحلف المنصور ليفعلن، فحلف أَبُو حنيفة أن لا يفعل، فقال الربيع الحاجب: ألا ترى أمير

المؤمنين يحلف! فقال أَبُو حنيفة: أمير المؤمنين على كفارة أيمانه أقدر مني على كفارة أيماني، وأبَى أن يلي، فأمر به إلى الحبس"[1].

وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الصَّيْمَرِيُّ الْفَقِيهُ بِسَنَدٍ لَهُ: لَمْ يَقْبَلْ أَبُو حَنِيفَةَ الْعَهْدَ بِالْقَضَاءِ، فَضُرِبَ مِائَةَ سَوْطٍ وَحُبِسَ، وَمَاتَ فِي السِّجْنِ"[2].

أقبلت عليه الدنيا بالجاه والسلطان، والمال، وكيف لا وهو مطلوب لأعلى درجات القضاء، ولكنه أبى تورعا، استبراء لدينه، وابتلي بأشد أنواع التعذيب، فلم يتنازل عن شيء من دينه، فكان أن أعلى الله ذكره في العالمين.

فليس معنى الصبر على المصيبة أنه يتحتم على الله أن يرفعها، حاشاه سبحانه أن يتحتم عليه شيء، بل إنه برحمته قادر على أن يداوي جراحها عن المبتلى الصابر الصادق مع الله، بأي كيفية يشاء ﷻ، وما يدريك لعل ألم التعذيب على الطاعة يكون بردا وسلاما على قلب المؤمن الصابر المحتسب، بفضل منه ورحمة سبحانه، حتى وكأنه لا شيء.

هذه أمثلة لمن كان الدين لديهم هو أغلى شيء في الحياة، أغلى من أنفسهم وأموالهم وأولادهم، وأغلى وأثمن من كل شيء.

أما هؤلاء الذين تنازلوا ـ حال المصيبة ـ عن دينهم أو عن جزء منه، كما يظنون، فلم يفقهوا من أمر دينهم شيئا، بل لم يلامس الإيمان الحق شغاف قلوبهم، لأنهم لم يتعظوا بما يضربه الحق جل في علاه من أمثلة ويجريه من

---

١ تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي.

٢ مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه، لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي.

أقدار ليثبّت أهل الحق والإيمان، مهما نزلت بهم من البلايا، إيمانا ويقينا في كل ما وعد به سبحانه، وأن بلاءات الدنيا مهما بلغت إن هي إلا ثمن بخس في مقابل ما أعده الله في الآخرة لأهل طاعته سبحانه.

وفي الحديث عَنِ الحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، فَمَسِسْتُهُ بِيَدِي فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلاَنِ مِنْكُمْ» فَقُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَجَلْ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى، مَرَضٌ فَمَا سِوَاهُ، إِلَّا حَطَّ اللهُ لَهُ سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا»[1].

كانوا يصبون على رأسه ﷺ الماء في مرض موته من شدة الحرارة، والصحابة ﷺ يشفقون عليه ﷺ من شدة الحمى.

فهل أصابه المرض والحمى الشديدة وهو في مرض موته، حتى يتحمل أعباء الرسالة؟

إن الرسالة قد تمت والدين قد اكتمل فليست الحمى الآن مما يفيد في البلاغ والقيام بأعباء الدعوة.

وهذا يعنى أن ما يصيبه ﷺ في مرض موته له حكمة مرادة من الله تعالى، وليست خاصة بتأهيله ﷺ للدعوة والرسالة.

كما أن المراد ليس تعذيبه ﷺ، بل هو الأجر والثواب، وهل يوجد من الخلق من هو أعظم عند الله تعالى مكانة من حبيبه ﷺ؟ يقينا لا أحد.

---

١ أخرجه الإمامان البخري ومسلم وغيرهما.

وأيضا، من الممكن أن تكون الحكمة أن لا يظن الناس أن ما يصيبهم من بلاء هو من قبيل العقوبة أو السخط عليهم؛ وأن يتعاملوا مع البلاء بما يعينهم على طاعة الله تعالى، من الصبر والرضى، وليس بالترخص في الدين أو الخروج إلى المعصية.

وأن ثمرة الخضوع بالعبودية ـ على الوجه الذي يريده الله ـ هو الرضى في الدنيا، الذي ينزله الله تعالى على نفس العبد مهما ألم به من بلاء، وأيضا الثواب الذي وعده في الآخرة والتي إليها المعاد مهما طال العمر.

وطوبى لمن أحسن اللجوء إلى الله تعالى، فغشيته الرحمة، وتنزلت عليه السكينة.

الأخذ بالأسباب وتحقيق مفهوم العبودية

الأخذ بالأسباب وتحقيق مفهوم العبودية

لا أتحدث عن الأسباب من جهة تعلقها بالأحكام الشرعية، من حيث الندب أو اللزوم أو الإباحة، ولكن أتحدث عنها من منظور آخر يغفل عنه كثير من الناس، حتى وإن استقر في يقينهم أن الأخذ بالأسباب مطلوب، وأنه لا يتعارض مع حسن التوكل على الله تعالى.

أتحدث عن السبب من جهة أن الأخذ به امتثال بالطاعة لله سبحانه، وذلك بقطع النظر عن السبب في ذاته، ومن هذا المنظور يكون الأخذ بالاسباب عبادة، كما أن العبادات جميعا من صلاة وصوم وحج وزكاة امتثال بالطاعة لله سبحانه وتعالى.

فقد شاءت حكمة الخالق سبحانه أن تجري مقادير الكون على سنن منضبطة محكمة لا تتخلف ولا تتبدل ولا تتغير، ولا تتوقف على مراد بشر.

هذه السنن المنضبطة هي التي تخضع لها الأسباب، التي يتفطن الناس إليها، فالبشر لا يطّلعون على حكمة الله مباشرة، ولكن يتوصلون إليها من خلال الأسباب الدالة عليها.

فكأن السبب رسول من رسل الله تعالى إلى الخلق، أو هو بالفعل كذلك، لأنه الوسيلة التي يدرك بها الخلق عظمة الخالق جل في علاه، ولهذا كان النظر إلى السبب والأخذ به طريقا إلى الإقرار الحق بألوهية الخالق

سبحانه، حيث يقول تبارك وتعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ}[1].

ويقول عز من قائل: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}[2].

وهذا العلم لا يتحصل عليه إلا بالأخذ بالأسباب الموصلة إليه، ولعل في قوله تعالى: "إِلَّا بِالْحَقِّ" بيان الإحكام والانضباط، الذي أجرى الخالق سبحانه عليه سنن الكون، كذلك في قوله جل وعلا: "يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"، ما يشير إلى الأسباب التي جعلها الخالق سبحانه طرقا للوصول إلى سنن الله في الكون.

ومع أن الأسباب هي الطريق إلى إدراك حقائق الكون إلا أن وظيفتها، أو رسالتها لها ثمرة أخرى لا تقل أهمية عن إدراك الحق، ألا وهي التعلق بالخالق على الوجه الذي يثبت القلب، ويريح الفؤاد، وكأنها تقول لمن انصاع لها كما أمر الله: "لقد أديت ما عليك فلا تقلق ولا تشغل قلبك بما ليس عليك"، وهذا المعنى إذا ما استقر في النفس كفيل بالوقاية من كثير من الهموم والقلق.

وهذا ما نحاول تلمسه في رحاب قوله تعالى: {وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا}[3].

---

١ سورة فصلت: ٥٣.

٢ سورة يونس: ٥.

٣ سورة مريم: ٢٥.

فإذا ما نظرنا إلى من توجهت لها الآية الكريمة بالخطاب، فلا نملك إلا أن نقول: ما أعظمك يا الله، وما أحوجنا إليك، أنت الخالق، وأنت المعبود، ولا معبود بحق سواك.

أو ليست هذه الآية دليلا على ألوهيتك وربوبيتك سبحانك؛

ويستوقفنا في الخطاب أن السبب الذي أمر به الخالق سبحانه، لا يوصل بذاته إلى النتيجة التي قررها جل وعلا، وهي تساقط الرطب، ومن هنا ندرك أن الحكمة المرادة من الأخذ بالسبب لها رسالة أخرى، هي التي نتحدث عنها.

إن أحدا من الخلق لو قال لغيره أن يهز بجذع النخلة، أو قال هذا القول لنفسه لاتهمه الناس بالعته أو الجنون، فمن ذا الذي يهز النخلة فتهتز وتسقط الرطب؟.

إن هذا ليس في مقدور عامة البشر، فما بالنا بمن هدها مخاض الولادة، وليس لها من الحول والقوة شيء.

ولكن أنت الحكيم يا الله، وقد تنزلت رحمتك على الخلق رحمات، يعجزون ـ ولو اجتمعوا ـ عن تعدادها أو حصر كنهها.

ومن هذه الرحمات العظيمة، بعد أن فطرت الخلق على العبودية لك سبحانك، والالتجاء إليك، أن جعلت من سنن الخلق أن يكون التعلق بك سبحانك متجددا، ليظل من اختصهم الله بطاعته مستمسكين بالعبودية على الوجه الذي ينالون به رضاك جل جلالك، فتكون الثمرة سكينة في النفس، وثبات في القلب، وراحة في الفؤاد.

وها هي خير نساء العالمين يأمرها تبارك وتعالى أمرا تعلم دون أدنى شك أنه لا يمكن أن يؤتي بذاته ثمرة، ولكن مفهوم العبودية، وما ينقشه في القلب من يقين واطمئنان جعلها تمتثل دون أن تراودها أفكار من لم يذق حلاوة الطاعة والامتثال بالعبودية.

إنها تعلم كما يعلم غيرها من البشر أن فعلها لا جدوى منه، وبخاصة في حالة ضعفها ومعاناتها مخاض الولادة، ولكنها لم تنظر إلى الأمر على هذا النحو، بل أدركت أن المولى تبارك وتعالى بحكمته، جل في علاه، لا يريد بها إلا خيرا، وما من خير أكثر لها في هذه الحال من أن يرفع عنها ويزيح عن كاهلها كل خوف ووجل، وذلك بأن يستقر في خلدها {إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ}[1]، تماما كما احتاج سيدنا إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه إلى هذا اليقين عند مواجهة التحدي، {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}[2]، فاطمئنان القلب هنا هو ثمرة المعاينة للحدث فتتحول المعجزة من غيب غير محسوس، إلى واقع ملموس، فيكون التفاعل مع السبب سبيلا إلى المعاينة واليقين، والذي يؤدي إلى اطمئنان القلب.

وهاهي المعاينة واليقين تصل إليه السيدة مريم عليها السلام وذلك بالأخذ بالسبب، فهو الممارسة المادية التي تنتج الثمرة المرجوة، وهي الثبات واليقين.

---

١ سورة الواقعة: ٩٥.

٢ سورة البقرة: ٢٦٠.

ألم تلمس هي بنفسها هذا في محرابها، عندما كان الرزق يأتيها بغير سبب، فكيف إذا طلب منها تقديم السبب؟ إنه أدعى إلى الشعور بالقرب من الله أكثر، إنه اطمئنان القلب بالخطاب الرباني الذي يفيد الرعاية والعناية في أتم صورها.

إن التكليف وإن كان في أصله تأصيلا لمعنى العبودية، إلا أنه أيضا يحمل في ثناياه فيوضات عطاء الله ومنه وكرمه.

وهكذا كل عبادة لا تقتصر ثمرتها على الامتثال لله تعالى بالطاعة، بل أيضا تحمل شعاع النور الذي يزيح كل ظلمة في قلب من أحسن الاهتداء به واللجوء إليه سبحانه.

أو ليست العبادات فرضها الله تحقيقا لمفهوم العبودية، بل هي أعلى درجات العبودية أن تخضع جوارحك طاعة لله تعالى، مع أن العقل لا يدرك المعنى الحقيقي أو المغزى من العبادة.

"وعلى سبيل المثال مناسك الحج، وما تمثله من أفعال، لا يدرك العقل حقيقتها".

فكذلك الامتثال لله تعالى في الأخذ بالأسباب، في كل مناحي الحياة، بقدر ما تحمله من مفهوم العبودية، إلا أنها تثمر سعادة في النفس، قد لا تعدلها سعادة، وبخاصة إذا ما تحقق الهدف.

إن الله ﷻ لم يكن ليعجزه أن يسقط عليها الرطب بغير سبب، وأن يثبت قلبها باليقين بغير سبب أيضا، ولكن لحكمة منه سبحانه جعل حركة الحياة مرهونة بالأسباب، ثم عطل الأسباب في مواطن مختلفة تنبيها للناس ورحمة بهم حتى لا ينجرفوا في مجاهل المادية المدمرة، بل يكون تعلقهم

بالخالق سبحانه دائما، كلما تفاعلوا مع الأسباب، واعتركوا بها، وليس تعلقا بالسبب لذاته.

إن العبادات المتنوعة ما هي إلا وسائل وأسباب يتعلق بها العبيد بربهم، حتى لا ينجرفوا إلى هاوية الضياع في مهالك الماديات، والركون إلى الأسباب والمسببات، وليس إلى رب الأسباب والخلق جميعا.

ولو لم تكن تكاليف العبودية المتمثلة في العبادات بشقيها التعبدي الخالص طاعة لله"[1]، والتعبدي المفهوم المعنى كما في أسباب الزراعة والصناعة وغيرها، طاعة لله أيضا.

ولولا هذه التكاليف التعبدية لما سلم أحد من الخلق، أو معظم الخلق من الغفلة والنسيان، الغفلة عن الخالق، ونسيان من بيده تصريف الأمور، فينجرف إلى هاوية المادة وينسى أنها مهما كان إحكامها وانضباطها، فإنها مأمورة وميسرة لمراد الله تعالى، وليس لغرض في ذاتها.

ومن هنا استقر في قلوب الخلق أنه لا عبودية دون تعلق بالمعبود بصلة من الصلات، ولهذا حافظ أهل الديانات الحقيقية على هذه الصلة مهما شابها من انحراف، ولكن على الرغم من انحرافها لم تختف، لإدراكهم أنها تمثل الرمز الذي يجتمع الناس حوله ويربطهم بدينهم، فأقاموا الصوامع والمحاريب من أجل ذلك، حتى ولو لم تكن لها حقيقة في ذاتها.

---

١ كالصلاة مثلا لا نعرف السبب في اختلاف عدد الركعات من صلاة إلى خرى، على سبيل المثال، والصيام لماذا كان في شهر رمضان دون سواه، ولماذا لم يكن مشتركا بين أكثر من شهر مثلا، والزكاة لماذا كانت المقادير على هذا النحو، وليست أقل أو أكثر مثلا، فكل هذه أمور تعبدية لا دخل للعقل فيها، والله أعلى وأعلم.

وكذلك كل أصحاب العقائد المبتدعة أقاموا أوثانا مختلفة ومعابد تحيط بها ليظل هذا التعلق والارتباط موجودا، ولولا هذه الهياكل والطقوس لانطمرت وانتهى أمرها وانمحى أثرها.

وهاهي حركة الحياة تثبت يوما بعد يوم أن أي أمة لا يمكن أن تستمر قوتها وظهورها إلا بذلك التعلق بين الأفراد وعقيدتهم برباط ما، نظرا لأنها الرابط والجامع بين شتات أفرادها.

ومن هنا ندرك عظمة الخالق سبحانه وجليل حكمته، حيث جعل هذه الطقوس التي يقوم بها الناس، عبادات لا تتخلف ثمرتها أبدا، إن كانت على الوجه الذي يرضيه سبحانه.

فهي وإن كانت عبادة إلا أنها أيضا سببا للتعلق بالله تعالى واستشعار معيته ﷻ، فكل العبادات تمثل بوجه من الوجوه السبب الموصل إلى الرضى والسكينة وذلك باستحضار هذا المعنى للتعلق بمن بيده وحده لا شريك له تصريف الأمور، والعبادات التي لا نفهم معناها لا يمكن أن يغيب عنا أنها السبب الموصل إلى معية الله سبحانه، فهي الوسيلة إلى اطمئنان القلب وثباته.

تماما كما أمر سبحانه أم موسى صلوات الله وسلامه عليه، أن ترميه في اليم، إنها العبودية، بل إنها الرحمة الواسعة الكامنه في طقوس العبودية، إنها الدليل الذي يخرج التوكل، ليكون بدلا من خفائه في ثنايا النفس، ظاهرا باديا كرؤيا العين، وإدراك الحواس، تحقيقا لقوله تعالى: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}[1].

١ سورة الحجر: ٩٩.

إن الذين لانت خلايا أجسادهم لتكاليف الخالق جل وعلا، هم الذين ارتقوا على وجه اليقين ليصلوا إلى مذاق العبادة الذي لا يمكن لمن ذاق حلاوته أن تنال منه مصاعب الدنيا قط.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يقوم بين يدي ربه حتى تتورم قدماه، إن هذا التورم أصبح صورة فقط، دون أثر حقيقي على النفس، فلم يكن ألما يكابده الرسول ﷺ، بل إن مذاق العبادة نزع أي أثر للألم، فأصبحت العبادة سياحة ومتعة، ويالها من متعة تلك التي ينتقل بها العابد من قيود المادة والجسد، إلى رحابة الغوص في ملكوت الغيب، استشعارا، ومعاينة.

{وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا}[1]، وأنتِ على يقين أنه اللامعقول، ولكن يصبح معقولا بإرادة الله تعالى، وليس بشيء آخر، لتري بعينيك أن الله معك وأنه سبحانه قادر أن يحفظك، مهما أحاط بك العبيد، فليست الأسباب إلا رسل لربها يوظفها خالقها كيف يشاء، فبقدر ما يكون السبب نقمة على من اتخذوه إلها، فهي نفسها بشريات الرحمة والراحة والطمأنينة عند من أدركه رسالتها التي بعثها الله بها، أو لم يدركوا عقلا وإن امتثلوا قلبا.

ولننظر إلى هذه الدفعة الواهنة الكليلة، فقد كانت هي السبب الذي يحمل الرسالة الحانية، الرسالة التي تبث الثقة والثبات، إنها الحركة التي تهيأت بها ولها كل خلايا الجسد للامتثال، فتجسد الغيب يقينا ملموسا، وغشيت النفس الطمأنينة واليقين، بدلا من الخوف والقلق.

---

١ سورة مريم: ٢٥.

فأشارت إلى الوليد بثبات ويقين دون أن تخشى تخلي الحق سبحانه عنها، عندما يواجهها أهلها.

ولو تساقط الرطب بغير تعلق بسبب ما، لربما غفلت عنه العين، أو ظنت النفس أنه هكذا يسقط، ولكن بهذه الحركة انقطعت كل ظنون الماديات، ولم يبق إلا اليقين الذي تحتاج إليه في مواجهة ما ينتظرها في مواجهة المنكرين لهذا الوليد.

ومهما كان يقينها في الخالق سبحانه، وهي التي عهدت الرزق بغير سبب، إلا أن هذا الموقف الذي تلد فيه بغير زوج أوجد لديها الخوف والقلق، وهي صفات بشرية لم ينج منها أحد من البشر، فكانت هذه الرسالة المتمثلة في التكليف الذي هو أخذ بسبب يحقق مفهوم العبودية الحق، بالامتثال بغير تردد ولا شك، هي الرسالة التي تحمل الثمرة، وتزيل الخوف والقلق.

وهكذا الحال لو فقهنا معنى الامتثال لله تعالى في كل ما أمر ونهى، في حياتنا كلها، إنها التكاليف الشرعية التي تكمن في ثناياها من مظاهر الرحمة ما لا حصر له، سواء منها ما علمناه، أو لم نعلمه، إلا أنه موجود.

ولعل في كل مظاهر العبادات المختلفة من الأسباب التي تحمل رسائل الخير ما يجعل مواجهة الحياة بكل ما فيها سهلا ميسورا

فيالها من رحمة، تلك التي تشع بها أوامر الخالق سبحانه جل في علاه، ويالها من سعادة تلك التي تتنزل على قلب من أبصر بعينيه جانب الرحمة في تكاليف العبادة.

النوم

- ما هو النوم؟
- النوم والخيال..
- كيف يأتي النوم؟!
- الموت والنوم..
- الوقت والنوم..

النوم

سوف أحدثك اليوم أيها الحبيب مصطفى حديثا أخشى أنني لو حدثت به أحدا غيرك لاتهمني في عقلي، ولهذا تراني لا أبوح لأحد بمكنون عقلي سواك، وأما السبب في هذا الظن فيرجع إلى أنني أدركت حقيقة _ أو هكذا أظن _ غفل عنها كثير من الناس، ومن خلال هذه الحقيقة استطعت تصور ما كان مستعصيا على فكري، ولكن دعني أبدأ معك من البداية.

ففي هذا اليوم حضرت صلاة الفجر في المسجد، ثم ذهبت لأنام، حيث أنه قد طال سهري حتى ساعة متأخرة من الليل، وكنت أغالب النوم حتى أقوم للصلاة.

ولكن يا سبحان الله، كأن أجهزة الجسم تدار بإرادة لا مجال لنا فيها، ففي هذه الساعة بعد صلاة الفجر، والتي لا تحسب من ساعات الليل، ولكنها أيضا لا تعتبر من ساعات النهار.

إنها أيها الحبيب مصطفى ساعة ما قبل الشروق، ولست أدرى لم تملكني الفضول في هذه اللحظات فأردت أن أعرف كيف ينسلخ النهار من الليل، ولماذا لا ينسلخ الليل من النهار، {وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ}[1].

١ سورة يس: ٣٧.

إن المفسرين يلجأون إلى ما تطيقه عقولهم حتى إذا عجزوا عن إدراك الحقيقة قالوا إن "منه" التي في الآية بمعنى عنه، كما ينسلخ جلد الشاة عنها، فكأن النهار عندما ينسلخ يبقى الليل، ولكنى لم أره كذلك، بل أرى أن السلخ هنا بمعنى النزع، كمن ينزع شيئا من داخل شيء آخر، لأن الأصل هو الظلمة بينما النهار، أو النور هو الطاريء على الظلمة، وما من نور في الكون إلا والظلام يغلفه من كل جانب، فلو حمل اللفظ على الحقيقة فإنه يكون أقرب إلى النزع، ولكن لا مانع من أن يكون المعنى خاصا بالكرة الأرضية فقط فيحمل اللفظ بهذا الخصوص على السلخ حقيقة، لأن النور والظلمة يتعاقبان على الأرض فيصلح بهذا إطلاق اللفظ على كل منهما، والله أعلى وأعلم، وعلى كل حال ليس هذا هو ما أردت الحديث عنه، ولكن فقط لأن الليل هو الذي يطيب فيه النوم، فقد لفت نظري إلى تعاقب الليل والنهار، وخروج كل منهما من الآخر، وهذا المعنى شد انتباهي فقط وأنا أبحث عن النوم.

فقد اشتدت حاجتي إلى النوم في هذه الساعة، فرحت أناجيه وأناديه وألح عليه، ولكنه تأبَّى عليَّ، على الرغم من أني رضخت له، وأغلقت جفوني، وأسلمت له نفسي، متكورا تارة، وممددا تارة أخرى، معلنا بكل وضوح واستكانة تعبي وحاجتي إليه، حيث أعلم دوما أن له سلطانا لا يتنازل عنه مطلقا، وأننا نحن الذين نلهث خلفه نرجوه ونطلبه، ولهذا فلا حيلة لنا إلا أن نكون كما أراد هو، وليس كما نحب أن نكون نحن، وما أقسى على النفس من أن يحركك مجهول لا تطلع عليه ولا تراه، فإنه لايستجيب لك أبدا إلا إذا أمن رؤياك أو إطلاعك عليه.

هل هو السهل الممتنع، أم أنه غير هذا، فلكم أذاق الأمرين لمن غضب عليه، ولم يصفح ويرضى إلا وقد توسط لديه الوسطاء، سواء أكانت الوساطة باستخدام المنومات المختلفة، أم كانت بغير ذلك، ويا ليتها كانت مقنعة.

إن عقول البشر مازالت تبحث يوما بعد يوم في مختبراتها عن وسيط مقبول يقبله النوم ليصفح عمن غاب عنه، فأنهكه وهد قواه، ومن عجب أنه كلما تم الوصول إلى وسيط لا يلبث أن يغب منه النوم مرة أخرى أو يرفضه، وهكذا لا تنقطع الحاجة إلى البحث والاكتشاف.

هل رأيت سهلا عسيرا كهذا، إننا ـ والله ـ لو فطنا إلى هذه الحقيقة لأدركنا كم نحن مفرطون في شكر نعم الخالق سبحانه ومقصرون في أداء حقها، فإذا كان هذا شأن نعمة واحدة ألا وهي النوم فكيف وقد قال سبحانه: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}[1].

١ سورة إبراهيم: ٣٤.

ولكن ما هو النوم؟

ومع أنني لست من أهل هذا التخصص إلا أنني رحت أتساءل، هل المغمى عليه ينعم بما يقوم به النوم من وظيفة تريح الجسد، أم أن الإغماء حالة مستقطعة من حياة الإنسان يعود الجسم بعدها كما كان أو أشد إرهاقا؟

هل تدري ماذا أقصد من هذا أيها الحبيب مصطفى، إنني أوقن أن نعمة الله لن يعادلها أبدا صنائع البشر، ولهذا لا أظن أبدا أن النوم يغني عنه شيء مما يفعله البشر.

ولكن هل يمكن أن نتعرف عليه بذاته، وليس من خلال آثاره؟ لماذا لا نسبر أغواره ونعرف مكنون أسراره؟

ألسنا قد أدركنا كثيرا من أسرار الجوع والعطش، وغيرهما من جنود الله في الجسد، ولهذا نتعامل معهما بقدر كبير من الفهم، أو هكذا يغلب على ظننا، فلم لا يكون النوم كذلك؟

لماذا عندما يغلب علينا الشعور بالنوم ثم نذهب لننام، لا نستطيع النوم؟.

في هذه الساعة لا أدري هل تملكني العناد، أم استحوذت عليَّ قلة العقل، أتعرف السبب لقد أردت أن أراه، وكأني رفضت الاستسلام والرضوخ لسلطانه، مصمما على رؤياه.

لا تضحك مني أيها الحبيب مصطفى، فما صرحت لك بمكنون نفسي إلا لأني أعلم أنك لن تهزأ بي، فإني في هذه الساعة قد استجمعت عنادي وأصررت على البحث عنه، نعم سأبحث عن النوم وأكشف ستره وأسراره.

لماذا يستسلم الناس له، ولا يحاولون الإطلاع عليه، إنني أدري أنه معي لا يفارقني، فما انتقلت أبدا من مكان إلى مكان، ولا زمن إلى زمن، إلا وهو معي لا يفارقني، فلماذا لا أراه أو أطلع عليه، أليس يسكن جسدي؟ كما تسكنه سائر الملكات، أو سائر المتحكمات، وقلَّ أن تمتنع واحدة منها إذا ما لبينا مطلبها، وبخاصة وقد أدركنا وسيلة التعامل معها، والتوافق مع أوامرها المختلفة، فهذه يكفيها كوب من الماء، وهذا يرضيه بعض الطعام، فإذا ما اشتد سلطان واحدة منها أمكنك إدراك مرادها، دون أن ينال منك الجهد والتعب مبلغا عظيما.

فلماذا يأبى النوم أن يستجيب لي، لماذا يتمرد علي ولا يأْبَه لي؟

قلت في نفسي ولماذا أطلبه ولا أدعه يطلبني هو، ثم تذكرت ما جعلني لا أتمادى فيما أنا فيه،

فلقد حدث يوما أن منعني من النوم مانع، وطال الأمر لأكثر من يوم متتابع، ثم إذا بي وفي غفلة مني أجدني والناس يوقظونني وقد نمت أثناء المواصلات، حتى فاتني النزول في المكان الذي كنت أريد النزول فيه، فقد طلبني هو ولكن على غير ما أحب وأرغب، ولهذا لا أريد أن أتركه مرة أخرى يطلبني هو، فلأتجمل معه وأذعن لسلطانه، حتى لا يفاجئنى بما لا طاقة لي على تحمله.

ومع هذا لا أنسى كيف كان بي عطوفا وبجسدي رفيقا، إنه لم يكلْ ولم يملْ من عطائه المتكرر، إنه يعطي ولا يأخذ كغيره، إنه يحنو عليك ويتعهدك برعايته، وما أمرك بشيء إلا من أجلك أنت.

إنك ترضخ له وتستكين مسلما إليه جسدك، الذي بلغ به الإرهاق والتعب مبلغا كبيرا، فإذا به يعيده إليك سالما معافى من كل ألم، ثم يتكرر هذا يوما بعد يوم، فلم يمتنع أو يضجر أو يرفض أن يسدي إليك خدمته، وسبحان من منحه هذه اللمسات الساحرة التي تمس كل خلية من خلايا الجسد فتحل عليها الراحة ويذهب عنها التعب والعناء، يفعل هذا دون أن ينتظر جزاء ولا شكورا، كل ذلك دون أن يحتاج إلى سماعة طبيب، أو مبضع جراح، بل دون أن يكلفك بأي شيء مما يتكلفه الناس لو عزَّ عليهم النوم.

إن من عجيب أسراره أنه يقوم بعمله الضروري أسرع مما نظن، ولهذا يكفيك القليل منه، حتى وإن كنت تأخذ منه أكثر من ذلك كثيرا، وفي خطاب المولى جل جلاله لرسوله ﷺ ما يؤكد ذلك: {يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا}[1]، فهل حاجتنا إلى النوم أقل بالفعل مما نظن، أم أن هذا من خصوصيات الرسول ﷺ.

وسبحان الله تعالى فللنوم ميزان يتوافق مع رسالته التي خلقه الله من أجلها، ولهذا لا يحتاج وقتا طويلا لانجاز مهمته، وكأنه يعطيك فسحة من الوقت كافية أيضا لتمارس حياتك وتؤدي حق الخالق سبحانه وتعالى

١ سورة المزمل: ١ : ٤.

عليك، ولهذا كان القليل من النوم الصحيح كافيا مريحا، بينما النوم الطويل غير الصحيح الذي يغاير مراد الله فيك، نوم غير مريح لأنه قد زاد عن المقدار الذي يؤهلك لمهام العبودية التي خلقك الله من أجلها، أو أنه لم يقع في الموقع الذي هيأه الله له، فسبحان من أحكم كل شيء وقدره في خلقه وكونه.

ألم يخبرنا تبارك وتعالى أن النوم الصحيح يكون في الليل، {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}[1]، أليس هذا دليلا على أن الذي أخبر عن هذا هو الخالق العظيم {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}[2]، ألم يتفق أهل العلم على أنه لا نوم صحيح إلا نوم الليل، وكم يعاني الذين ينامون في النهار دون الليل من المتاعب والاضطراب، على عكس الذين ينامون في الليل، على النحو الذي فطر الله الناس عليه.

غريب هو الإنسان حيث يغفل عن الآيات البينات التي تحيط به من كل جانب، وتفصح بكل معنى أن الله هو الواحد الأحد الفرد الصمد، لا لشيء إلا لأن هذه الآيات مما يجري في حياة الناس كل وقت وحين، حتى ألفها الناس فلم يفطنوا إليها، تماما كما النوم لا يغيب عن أحد قط ليس مرة أو مرات بل إنه يلازم الخلق منذ ساعة مولدهم وحتى يأتيهم الأجل المحتوم، ولو أنهم أحسنوا الفهم وأصابوا التفكير لأدركوا أن انضباط النوم على نسق واحد عند جميع الناس لا يمكن أن ينشأ إلا عن حكمة وإرادة، ولم يوجد

---

١ سورة يونس: ٦٧.

٢ سورة الأعلى: ٢، ٣.

في الخلق جميعا من نسب إلى نفسه هذا الإحكام والتقدير بل هو خالق الخلق سبحانه وحده لا شريك له، {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}[1].

وبعد أيها الحبيب مصطفى وأنت الطبيب الماهر، هل رأيت طبيبا نجح فيما نجح فيه النوم، هل استطاع طبيب أن ينزل السكينة والراحة على جسد إنسان كما يفعل النوم؟ أليست قلة عقل مني أن أجحد كل هذا، وأتنكر له، وبدلا من العرفان والامتنان أذهب إلى التحدي والعناد، وكأني أريد أن أسيطر عليه ليكون طوع أمري، آمره فيستجيب، وأدعوه فيلبي، ولكن هيهات هيهات، فما أمكنني أبدا أن أصل إليه، حتى أتحكم فيه.

ففي تلك الساعه التي أسلمت له فيها نفسي وأخضعت له جسدي، وأغلقت عيني، انتظرته طويلا، ولكنه أبى، فتكورت وتمددت يمينا تارة، ويسارا أخرى لعله يرأف بي ولكنه امتنع، فهل امتنع لأنني أخللت بشيء من شروط عبوديته للخالق سبحانه، أم أن له فسحة من التصرف يباح له فيها أن يفعل ما يشاء، فامتنع مني بإرادة منه؟

ولكن مهلا هل يكون السبب أن عقلي قد انطلق من عقاله، وراح على غير إرادة مني يسبح في دنيا الخيال؟ وياله من عنيد هو الآخر حيث يتمرد عليَّ كثيرا ولا ينصاع لي، ولست أدري لماذا يجعلان جسدي مسرحا لصراعهما، إنه النوم والخيال، فما أن تغلق الأجفان رؤى العينين، حتى ينطلق الخيال في أنحاء الكون الفسيح، وتتوالى الأفكار وتتابع الصور من كل بعيد وقريب، وكأنها قد انقشع عنها الحجاب.

---

١ سورة الأنعام: ٩٦.

النوم والخيال:

لا أتحدث هنا أخي مصطفى عن الرؤى أو الأحلام، فإن الأصل فيها أنها لا تعارض النوم ولا تغالبه، بل تحدث من خلاله فهي غالبا تصاحبه.

أما ما أتحدث عنه فهو الخيال، والذي أقصد به سبحات العقل، فكثيرا ما ينشأ الصراع عندما ينتقل العقل من بستان إلى آخر، أو من زهرة إلى أخرى، ويأبى النوم أن يأتي إلا إذا استقر العقل وتوقف الخيال، ويالها من معضلة.

إنك أسير هذا الصراع إن نجح النوم أن يهزم الخيال ستضيع منك نفائس الأفكار، وغالبا لن تستعيدها مرة أخرى، ولست أدري لماذا، إنه عالم غير العالم الذي تراه العين، إنه عالم عجيب، فليس السبب في ذلك هو حالة الهدوء التي تسبق النوم، فإنها حالة يمكنك صناعتها وقتما تشاء، ومع هذا لا يمكنك استدعاء الأفكار على النحو الذي يسبق النوم، وكأن الخيال هو أيضا يأبى إلا أن يكون مطلوبا عزيزا، فلا يكشف عن مكنونه إلا إذا أقمت برهانا على أنك تقدِّره وتنزله منزلة عالية، فإذا ما استسلمت للنوم غضب وكأنك أهملته ولم تعطه حقه الذي يليق به.

وأما عندما يهزم الخيال النوم تبهرك الأشياء بألوانها الزاهية البراقة، التي تكاد لا تجتمع لك أبدا في دنيا اليقظة، فقلَّ أن يجمعها مكان، كما يجمعها الخيال في هذه الساعة.

فهل يكون السبب في ذلك أن حاسة السمع والبصر تنزويان الآن عن المشهد، ومن أجل ذلك تنعدم كل المؤثرات التي تحد من سلطان العقل

وسبحات الخيال؟ قد يكون هذا هو السبب وقد يكون شيئا آخر فلست بقادر على القطع بشيء من ذلك.

كذلك كثيرا ما تلتبس عليك العظات والعبر التي تموج بها الأحداث، فإما أن يغيب عنك إدراكها، وإما أن تغفلها وتتغافل عنها، كأنها ضرب من الأوهام، لكن في هذه الساعة تتفتق مكامن الحكمة، وتنجلي أسرار الأشياء كما القمر بدرا في كبد السماء.

يا سبحان الله، كم من درة غالية تبلورت واكتملت رؤياها، تكاد تقفز بين يديك لا يحول بينك وبينها إلا هذا العنيد الشديد، إنه النوم، فإما أن تنحيه جانبا وتهرع إلى الأوراق والقلم لتحفظ هذه الدرر التي تتلألأ بين يديك، وقد يغاضبك النوم وقتها ولا يرجع في وقت مناسب مرة أخرى، بل قد يذهب ولا يعود اليوم مرة أخرى.

ماذا أفعل إنهما يتشاحنان ويتغالبان، ليؤكد كل واحد منهما أنه أحق بالفوز والغلبة.

فالنوم لا يأتي إلا وقد أُغمضت العينان، وبالمقابل فإن مغاليق العقل، ومكامن الرؤى لا تنفتح وتنجلي بقدر ما تكون في هذه اللحظات.

إن أَنْفَس ما تبحث عنه، وأغلى ما تطلبه لا يقترب منك، أو تناله يداك إلا في هذه اللحظات، ولكنها لحظات يملكها النوم ولا يسمح لغيره أن يتصرف فيها، فبالله عليك ماذا أفعل معه؟

لماذا لا ينتظر عندما أريد منه الانتظار؟، إنه سريع الغضب ولا يقبل الأعذار.

أردت أن أعامله بالمثل، فأتجاهله ولكن تذكرت ماذا يحدث في كل مرة فعلت فيها ذلك، لقد كانت كل خلية من خلايا جسدي تئن وتتوجع وترجوني أن لا أجافيه، حتى إذا ما بلغ منها الإرهاق والتعب مبلغا، انقلبت علي تعاقبني، حتى أفقدتني صوابي واتزاني، فاهتزت الرؤى أمام عيني، واضطربت الأفكار في عقلي، وتلجلجت الأشياء بين يدي، وخارت حين المشي قدماي، حتى كدت أقع مغشيا علي.

إنها ذكرى لا أحب أن أستحضرها ولا أقوى على تكرارها، ولهذا صرفت نفسي عن عناده والتمرد عليه، ورحت أبحث عنه علني أعثر عليه، إنني على يقين أنه موجود داخلي، لدي، ولكن أين هو وكيف يتوارى دوما عن عيني؟ ولا أستطيع أن أعثر عليه.

هل أبحث عنه تحت جفني، أم أنه يتوارى خلف أذني، فإنه دوما عندما يأتي يمنعني من رؤية ما حولي أو أن تسمع ما يقال أذني.

إنه جندي من جنود الخالق سبحانه، ولن ننال رضاه إلا بما علمنا الله، وصدق جل وعلا إذ يقول: {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}[1]، فلأتوجه إليه سبحانه أدعوه أن يرفق بي النوم، وها أنا أدعوه جل في علاه، فلأستمر في الدعاء.

ولكن ما هذا، إنه المنبه، ماذا حدث، لقد مرت الساعات الست.

١ سورة غافر: ٦٠.

كيف أتى النوم؟!

لقد كنت أعالج النوم ويعاندني ثلاث ساعات متصلة حتى يئست منه، وظننت أنني لن أحظى منه بشيء، ولكن مرت الساعات الثلاث الباقيات، وها هو المنبه يعلن عن الساعة العاشرة.

يا سبحان الله لقد أتى جندي الله، لقد أتى النوم، لقد بذلت كل جهدي حتى أراه عندما يأتي، ولكن مع هذا أتى دون أن أراه، أو أشعر به، هل أتى عندما كنت أدعو الله، أم عندما فرغت من الدعاء، أو أثناء أو بعد ذلك، لست أدري ولكنه أتى، من أين جاء وأين ذهب لست أدري.

هل تدري أيها الحبيب مصطفى لولا يقيني من أن كل الأبواب حولي مغلقة ولا وسيلة ليدخل أحد يُغيّر ساعة المنبه، إنها ثلاث ساعات أخرى حقيقة استحوذ علي النوم فيها، فكيف تسنى له ذلك دون أن أشعر بمجيئه، هل كان يحمل بنجا أو مخدرا أو ما شابه ذلك، إن شيئا من ذلك يقينا لم يحدث.

ولكن أين هو وماذا يحمل معه، وكيف يخفيه ويختفي، لقد حاولت جهد طاقتي ولكني فشلت، كل ما أدريه أنه أتى وأنه موجود، وبنفس الطريقة التي أتى بها دون أن أراه أو أطلع عليه ذهب واختفى، ولولا أن المنبه قد أثبت كل هذا ما صدقت.

وفي هذه اللحظات التي تلي رنين المنبه تصبح الأشياء لديك مازالت غائمة لا تفصح عن نفسها بصورة واضحة، مما جعلني أتساءل، هل

استطاع أن ينتهي من رسالته التي استعبده الله بها في هذه الفترة الوجيزة، في هذه السويعات المحدودة.

إنها عبادته هو وليست عبادتي، ولهذا لا أحسن سبر أغوارها، ولكن يقيني إنه قد أدى أمانته على خير وجه، ولأن مفردات لغته مجهولة تماما لدينا فإنا لا نحسن الحكم على ما يقوم به، وإن كنا ندرك أثره، ونلمس نتيجته، ولو تُرك الأمر لتقدير عقولنا لقلنا إن وظيفته لا تنجز إلا في ساعات طوال، ولكن تقدير الأمور يختلف.

إنه جندي من جنود الله لا يحتاج ما يحتاجه البشر، فلقد أدى مهمته على خير وجه، دون أن يحمل آلة، بذل البشر من أجل الحصول عليها ما لا حصر له من الجهد والمال.

كما أنه لا يحمل جهازا يستحوذ مثله على سنوات وسنوات من العناء والتعب، حتى يلين في يد البشر، ويؤدي غرضه على خير وجه.

وعجبا كل العجب، ألا تحتفظ المستشفيات بكثير من العدد والآلات التي تتنوع وتختلف فيما بينها من أجل أن تقوم بما قام هو به في هذه السويعات الخاطفة، دون أن يشعر به أحد، أو يحتاج إلى معونة أحد، ويا سبحان الله، كيف يفعل ذلك؟

الموت والنوم:

هل حقا لا يقهره الموت كما يقهر سائر المخلوقات؟ فهو يقوم بعمله ولا يأبه بالموت، أم أنه مؤجل إلى أجل لا يسبق صاحبه مطلقا؟، أم أنه لا يموت إلا بموت صاحبه؟، لست أدري إلا أنه يقينا لابد أن يموت، أو كما قال ربنا جل جلاله لابد أن يهلك حيث لا يبقى إلا مالك الملك سبحانه ذو الجلال والإكرام {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}[1].

نعم سوف يموت النوم أو يهلك وليهزأ الماديون كما يشاؤن، فإنما هي الغفلة، ففي الحديث

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: وهَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ}[2]، وَهَؤُلاَءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا {وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}[3]"[4].

---

١ سورة القصص: ٨٨.

٢ سورة مريم: ٣٩.

٣ سورة مريم: ٣٩

٤ صحيح البخاري .

وعجيب أهل هذه الدنيا فقد استطاعت عقولهم أن تفعل الأعاجيب والتي لو قيلت في زمان سابق لاتهم قائلها بالجنون، ومع هذا يكابرون ويعاندون في خبر الخالق سبحانه، لأنه فوق طاقة إدراك العقول، وغفلوا عن حقيقة لا يمكن إنكارها، وهي أنه لو أدركت عقول المخلوقين قدر الله وحكمته على الوجه الأتم الأكمل لانتفت صفة الخلق، ولما كان أحد أحق بالخلق من المخلوق، وكل هذا يدرك العقل أنه عبث لأنه لا طاقة للعقول على إنكار الخلق، ولا إنكار موت المخلوقين، فكان هذا يكفي من الدلائل والبينات للإذعان للخالق سبحانه والتصديق بخبره مهما عجزت العقول عن تصوره وإدراكه على حقيقته، ويالها من عقول تمثل قول الله فيها: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}[1].

وكأن الخالق سبحانه يتحدى الخلق بالنوم، إن كنتم تعجزون عن منع الموت، فهاكم هو النوم هلا فامنعوه، فبين النوم والموت رحم قريب.

يا سبحان الله هل يمكن أن يكون النوم هو الموت أم أنه بضعة منه؟

هل يمكن أن تكون الآيات الكريمة تطلعنا عن شيء من أسرار الموت عندما جمعت بين النوم والموت {اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[2].

---

١ سورة الجاثية: ٢٣.

٢ سورة الزمر: ٤٢.

وهل النوم موت أو أنه جزء من الموت {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ}[1]،

يقول أهل التفسير: (اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها يَعْنِي أَنَّهُ تَعَالَى يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ الَّتِي يَتَوَفَّاهَا عِنْدَ الْمَوْتِ يُمْسِكُهَا وَلَا يَرُدُّهَا إِلَى الْبَدَنِ وَقَوْلُهُ: وَيُرْسِلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى يَعْنِي أَنَّ النَّفْسَ الَّتِي يَتَوَفَّاهَا عِنْدَ النَّوْمِ يَرُدُّهَا إِلَى الْبَدَنِ عِنْدَ الْيَقَظَةِ وَتَبْقَى هَذِهِ الْحَالَةُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، وَذَلِكَ الْأَجَلُ هُوَ وَقْتُ الْمَوْتِ فَهَذَا تَفْسِيرُ لَفْظِ الْآيَةِ)[2].

ويمكن أن نفهم من هذا أن النوم وإن لم يكن موتا من كل وجه إلا أنه ليس غريبا عنه بالكلية، بل بينهما جامع لا يمكن إنكاره.

ومن هذا الوجه كأننا نذهب إلى الموت بأنفسنا كلما ذهبنا إلى النوم، ولكن مع العودة للحياة مرة أخرى وتكرر ذلك غفلنا عن هذه الحقيقة، فلم نحسن التعامل معها كما علمنا رسول الله ﷺ في حديثه: "إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ، فَلْيَأْخُذْ دَاخِلَةَ إِزَارِهِ، فَلْيَنْفُضْ بِهَا فِرَاشَهُ، وَلْيُسَمِّ اللهَ، فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا خَلَفَهُ بَعْدَهُ عَلَى فِرَاشِهِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَضْطَجِعَ، فَلْيَضْطَجِعْ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ، وَلْيَقُلْ: سُبْحَانَكَ اللهُمَّ رَبِّي بِكَ وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي، فَاغْفِرْ لَهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ"[3].

---

١ سورة الأنعام: ٦٠.

٢ تفسير الرازي.

٣ صحيح مسلم.

ومعنى أمسكت نفسي أي قبضتها بالموت ولم تعدها مرة أخرى إلى الجسد، وهذا يدل على أنها وقت النوم لم تكن في الجسد، فهو موت ولكن ليس موتا تاما.

وهكذا يعلمنا الرسول ﷺ أن نحتاط للأمر خشية أن لا تعود النفس إلى الجسد مرة أخرى فتكون قد غادرته على طاعة، فهذا الدعاء تماما كما يلقن الميت النطق بالشهادة حتى يكون موته على طاعة فكذلك النوم.

تدور هذه المعاني في أذهاننا وبخاصة عندما نغالب النوم فلا يأتي، ولكن سبحان الله، فقد أتى ثم ذهب تماما كما أتى، دون أن أشعر به أو أراه، ولولا أن رنين المنبه هو الذي أيقظني ما شعرت أنه قد ذهب.

ولولا أنه أعاد إليَّ خلايا جسدي سليمة معافاة لشككت فيه، وظننت أنه وهم من الأوهام، ولكن كل شيء في خلايا جسدي يؤكد أنه موجود وهو معي لم يغادرني، ويقوم بعمله فعلا على خير وجه، وإن عجزت أن أراه.

الوقت والنوم:

كنت أحاول الغوص في خفايا النوم، استحلفه واستنطقه ليخبرني بمكنون سره، ولكنه المنبه، ارتفع صوته لينتزعني من رحلة البحث عن هذا السر العظيم، التي كنت أظن أنني قد بدأتها فعلا، ولكن ها هو يخبرني أن الساعات الست قد مرت، فهل يخدعني؟

إنني أوقن أنه قد مرت من الساعات الست ثلاث كنت ابحث فيها عن النوم ولم أجده، ولكن أين ذهبت الثلاث الأخرى، هل استغرقتها رحلة البحث؟.

هل هذا المنبه يخدعني، سوف أتيقن الآن من خداعه، فلأنظر إلى الساعات الأخر، ولكن ما هذا؟ إنها تتفق جميعا على نفس الساعة، إنها الساعة العاشرة صباحا.

إنه وقت ليس قصيرا فكيف مر في هذه العجالة.

ولولا تعدد الساعات التي تؤكد أنها العاشرة لقلت إن المنبه يخدعني.

ولكنه ليس كذلك، فبم تفسر ذلك؟ كيف مرقت هذه الساعات الثلاث، لماذا لا تمر كل ساعات النهار بهذه السرعة، كما مرت ساعات النوم هذه، أم أن هذا التعجل خاص بي؟

هل كل إنسان له وقته الخاص به، ولا يشترك البشر جميعا في وقت واحد، حتى وإن اتفقت الساعات؟.

إذا كان الأمر كذلك، فكيف تتفق الساعات جميعا ولا تتغير، إنها ليست جميعا متفقة في التعبير عن الوقت، حتى وإن كانت جميعها تشير إلى ساعة واحدة.

إنه السر الذي أدركته في هذه الرحلة التي أبحرت فيها دون أن أدري أكان قبل أم بعد النوم، هذا السر يكمن في حقيقة الوقت، أو الزمن.

إن المعنى ليس واضحا لدي بالقدر الذي أستطيع تصويره، ولكني أحاول أن أتلمس طريقا عسى أن يقترب به المعنى قدر المستطاع.

تصورت للحظة حركة الدوامة التي تأخذ شكل المخروط، ثم تصورت لو أن هذا المخروط ـ مخروط وهمي لتقريب الصورة فقط ـ هائل الارتفاع ويتسع بدرجة كبيرة مع كل ارتفاع، ثم إن هذا المخروط يدور بسرعة هائلة، فإن نقطة رأس المخروط سوف تتم دورتها حول نفسها في زمن قد يكون جزء ضئيل من الثانية، والمسافة التي تقطعها بالدوران تكاد تحسب بالسنتيمتر، بينما قاعدة المخروط وبخاصة عندما يكون المخروط مقلوبا لأعلى، فإن القاعدة يمكن أن تكون باتساع السماء، أو أكثر كلما ارتفعنا في الفراغ الكوني، فإن أي نقطة على محيط القاعدة سوف تقطع المسافة في الدوران حول نفسها في نفس الوقت الذي تقطعه نقطة رأس المخروط، أي جزء ضئيل من الثانية، بينما المسافة المقطوعة يمكن أن تصل إلى رقم لا محدود من الكيلومترات، قد يزيد على ملايين الملايين.

ولست بصدد الدخول في كلام علمي لا طاقة لي به، ولكني فقط أحاول نقل الفكرة، والتي ارتبطت في ذهني بالنوم وما يحمله من الأحلام والرؤى، والتي ينعدم بالنسبة لها عنصر الزمن، فقد تأخذك سِنةٌ من النوم ثم إذا بك

وقد أفقت تحكي من الأحداث ما لا يمكن أن يحدث إلا في شهور أو سنين، فكيف حدث هذا، جعلني ذلك أستحضر حركة الدوامة والتي تأخذ شكل المخروط، ثم نظرت في حركة جسم ما على ارتفاع ملايين الكيلومترت مثلا على نفس محيط المخروط أو الدوامة، وحركة جسم آخر يعلو هذا الجسم بملايين الكيلو مترات الأخرى، وهكذا، ثم رحت أتخيل حركة كل جسم على حدة، مع أنها مرتبطة بنفس حركة المخروط، فرأيت أن المسافة التي يقطعها كل جسم تتفاوت تفاوتا هائلا، مع أن الزمن الحقيقي، وهو زمن دوران المخروط واحد، ومعنى هذا أن الأجسام تتفاوت سرعتها تفاوتا هائلا أيضا، فإذا ما نظرنا إلى حركة كل جسم مقارنة بالوسط المحيط به، فإن الحركة النسبية قد تكون كلها بالنسبة للأجسام في المستويات المختلفة قد تكون واحدة أو تقرب من ذلك.

ومعنى هذا أن الجسم الموجود في طبقات الكون اللانهائية يقوم بأضعاف أضعاف ما يقوم به الجسم في المستويات الأدنى وهكذا، وكل هذا وزمن دوران المخروط واحد، والمعنى المستفاد من ذلك أن الوقت وإن كان واحدا صورة، إلا أنه يختلف من مستوى إلى آخر.

كل هذا الكلام دفعني إليه ما نراه في النوم ونعجز عن تصوره، ثم استحضرت قول المولى تبارك وتعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[1].

١ سورة الإسراء: ١.

وقوله تعالى: {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى}[1].

واستوقفني أن الإسراء كان ليلا، وقد دلت الأحاديث على أن الإسراء والمعراج كان في ليلة واحدة، وقد ظننا أن هذه الحادثة من قبيل المعجزات، التي لا تخضع لناموس الكون، بل يجريها الخالق سبحانه كيف يشاء.

ولكن لماذا لا يكون ارتباط الحادثة بالليل والنوم تنبيها على أن في هذه الحادثة آيات ودلائل يمكن أن تدرك بالعلوم الكونية التي يصل إليها العلم ولو بعد حين.

بمعنى أن عامل الزمن يختلف باختلاف السرعة، ولما كانت سرعة البراق مما لا يمكن أن يحيط به بشر، كانت الأحداث بعد ذلك متناسبة مع هذه السرعة بمعنى أن الزمن يكاد أن ينعدم، وبالتالي تكون كل المشاهد التي مر بها رسول الله ﷺ والتي تحتاج بحسب الزمن الأرضي إلى ساعات وساعات، هذه المشاهد والأحداث أخذت وقتها الكافي الذي يناسب المكان الذي حدثت فيه والسرعة التي حدثت بها.

فماذا لو نظرنا أيها الحبيب مصطفى إلى حادثة الإسراء والمعراج من هذه الزاوية، زاوية السرعة مع الزمن، تماما كما تحدث الأحلام والرؤى في النوم، والتي أثبت العلم بالفعل شيئا مما يخدم هذا المعنى، أليست الأحلام والرؤى من الحقائق المقطوع بها، هل معنى أننا لا ندرك كيفيتها أنها ليست حقيقة؟

---

١ سورة النجم: ٨ : ١١.

ففي الحديث المتفق على صحته أن رسول الله ﷺ قال: «رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»[1].

أليس النوم هو بوتقة الأحلام والرؤى، أو ليس هو آية من آيات الله في الكون، التي لم يحط الإنسان بسرها ولا بالقليل منه، وسبحانه جل في عليائه إذ يقول: {وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}[2].

يقول **الإمام القرطبي**: (قِيلَ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ تقديم وتأخير، والمعنى: ومن آياته منامكم بالليل وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ بِالنَّهَارِ، فَحُذِفَ حَرْفُ الْجَرِّ لِاتِّصَالِهِ بِاللَّيْلِ وَعَطْفِهِ عَلَيْهِ، وَالْوَاوُ تَقُومُ مَقَامَ حَرْفِ الْجَرِّ إِذَا اتَّصَلَتْ بِالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ فِي الِاسْمِ الظَّاهِرِ خَاصَّةً، فَجُعِلَ النَّوْمُ بِاللَّيْلِ دَلِيلًا عَلَى الْمَوْتِ، وَالتَّصَرُّفُ بِالنَّهَارِ دَلِيلًا عَلَى الْبَعْثِ)[3].

ويقول **الإمام الرازي**: (قَوْلُهُ: مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ قِيلَ أَرَادَ بِهِ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ وَالنَّوْمَ بِالنَّهَارِ وَهِيَ الْقَيْلُولَةُ: ثُمَّ قَالَ: وَابْتِغَاؤُكُمْ أَيْ فِيهِمَا فَإِنَّ كَثِيرًا مَا يَكْتَسِبُ الْإِنْسَانُ بِاللَّيْلِ، وَقِيلَ أَرَادَ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَابْتِغَاؤُكُمْ بِالنَّهَارِ فَلَفَّ الْبَعْضَ بِالْبَعْضِ)[4].

---

١ البخاري ومسلم.

٢ سورة الروم: ٢٣.

٣ تفسير القرطبي.

٤ تفسير الرازي.

📖 **وعلى كلا المعنيين فالنوم آية لا ينضب معين عطائها لكل من رام البحث عن أسرارها.**

والله أعلى وأعلم.

فهـــرس في دائرة العبودية والعبادة

الموضوع	رقم الصفحة
بين يدي الكتاب	١٣
مقدمة	١٩
التمهيد	٢٤
نظرات حول مفهوم العبودية والعبادة	٣٤
معنى العبودية	٣٥
مفهوم العبودية عند أهل الترف والسلطان	٣٩
العبودية والعقيدة	٤٤
الله ومفهوم العبودية	٥٢
مفهوم العبادة	٥٦
العبادة حق لله وحده	٦١
العبادة وحتمية المشقة	٦٧
المشقة والتيسير في العبادة	٧١

ثمرة العبادة الحق	٧٤
على قدر اليقين تكون الإجابة	٨٤
الابتلاء ونسائم الرحمة في ثناياه.....	١٠٥
الأخذ بالأسباب وتحقيق مفهوم العبودية.....	١٣٧
النوم	١٤٩
ما هو النوم؟.....	١٥٢
النوم والخيال	١٥٧
كيف أتى النوم؟!	١٦٠
الموت والنوم.....	١٦٢
الوقت والنوم.....	١٦٦
الفهرس	١٧٣

تم بحمد الله

تم بحمد الله